

انطوائيم



تأليف

رومان رولان



ترجمة
نور رؤوف كابلان
مراجعة
عبد العزيز الأحواني

SP
84
P

أنطوانيت

الالف كتاب

(١٩٤)

انطوائى

لرؤفاه . رولوه

مراجعة
الدكتور عبد العزيز الأهلانى

ترجمة
الدكتور رؤوف كامل

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر ومطبعها
القجالة - القاهرة

نظبة نهضة مصر
القجالة - القاهرة

هذه ترجمة كتاب

ANTOINETTE

تأليف

ROMAIN ROLLAND

آل جانان أسرة من تلك الأسر الفرنسية العريقة التي استقرت منذ قرون في بقعة واحدة من الريف ، نقية من كل خليط أجنبي .. وفي فرنسا من هذه الأسر عدد أكثر مما يظن ، على الرغم من التغيرات التي طرأت على المجتمع ، تلك الأسر لا بد لها من انقلاب جد قوى لا تتزاعها من تلك الأرض التي تربطها بها عدة روابط عميقة تجعلها هي نفسها .. لم يكن للمنطق دخل في هذه الروابط ، ولا للمصلحة إلا في القليل ، أما من ناحية العاطفة التي تنيرها الذكريات التاريخية فهذه ليست بذات أهمية إلا عند بعض الأدباء . والذي يوطد هذه الروابط المتينة التي لا تقهر ، هو شعور غامض قوى مشترك بين أبسط الناس وأذكاهم ، بأنهم — منذ قرون — قطعة من تلك الأرض ، يحبون حياتها ، ويتنسمون عبيرها ويسمعون ضربات قلبها مع قلوبهم .. كأن الناس والأرض شخصان متجاوران ، راقدان على مهد واحد ، فهم يشعرون بخلجاتها الخفية ، ويحسون بأدق الفروق بين الساعات والفصول والأيام الضاحية منها والغائمة .. وكذا صوت الأشياء وسكونها. ولعل أجمل البلاد وأسعدنا حياة ليست هي التي تأسر القلب أكثر من غيرها ، وإنما هي البلاد الأقرب إلى البساطة والتواضع التي تدنو من الإنسان وتحدثه بلغة ودية مألوفة .

هكذا كانت تلك المقاطعة في وسط فرنسا حيث عاش آل جانان :
بلاد مستوية ، رطبة ، ومدينتها قديمة ناعسة ، تشاهد شكلها السأمان
منعكسا على مياه آسنه لقناة راكدة ، وحوها حقول رتيبة ، وأراض
محروثة ومراع وجداول ماء وغابات .. ثم حقول رتيبة .. مامن منظر
جذاب ولا بناية أثرية ولا تذكار، ما من شيء وجد ليجتذب الإنسان
إليها ولكن كل شيء وجد ليربط الإنسان بها . وكان في هذا الفتور
وهذا الخمود قوة دافئة، والإنسان الذي يتذوقها للمرة الأولى لابد أن
يكابد الشدة فيها ويشور عليها . أما ذلك الذي تطبع بطباعها منذ أجيال
عديدة فإنه لا يمكنه أن يفصل عنها لأنه امتلأ بروحها . وهذا السكون
في كل شيء ، وهذا السأم المنتظم ، وهذه الرتابة ، كل هذه الأشياء فيها
جاذبية بالنسبة له وفيها لذة قوية لا يدرك الإنسان مداها ، فهو يسخر
منها ولكنه في نفس الوقت يحبها ولا يمكنه أن ينساها .

في هذا البلد عاش آل جانان دائماً . ويستطيع الإنسان أن يقتبع تاريخ هذه الأسرة ، في المدينة وضواحيها إلى القرن السادس عشر : لأنه قد وجد - كما يحدث ذلك كثيراً - واحد من شيوخ العائلة قد كرس حياته لترتيب نسب هذه السلالة من أناس صغار مغمورين ، ولكنهم مجدون ، من فلاحين ومزارعين وأصحاب حرف ، ثم كتبة وموثقين في الأرياف ، ثم أناس استقروا آخر الأمر في مركز من مراكز المقاطعة . وفي هذه البلدة أخذ أوجستان جانان ، والد جانان الحالي ، يزاوّل عمله في لباقة كبيرة كصير في . كان رجلاً ماهراً ما كراً مثابراً كالفلاح ، وكان - على أي حال - فاضلاً - ولكن دون تزمّت ، مجداً في عمله ، متجاوباً مع الحياة . وقد جعلته سذاجته الماكرة وحديثه الصريح ، ثم ثروته ، جعله كل ذلك محترماً مهاباً في منطقة تمتد عشرة فراسخ حول بلدته . كان قصيراً مكنتراً ، مقتول العضلات ، له عينان تشعّ منهما الحيوية في وجهه الأحمر الضخم الذي تبدو فيه آثار جديري . وقد جعل الناس ، فيما مضى ، يتحدثون عنه كشاب يجري وراء الحسان ولم يفقد بعد هذه الهواية تماماً . كان يحب المرح بما يتخلله من إباحية ويحب أيضاً إلاكل الطيب . . ولبتك تراه على المائدة يواجهه ابنه انطوان - وهو يتحداه في الأكل والمرح - ومعهم بعض الأصدقاء القدامى من نوعهما كالقاضي والموثق وكبير كهنة الكنيسة : (وكان جانان

العجوز لا يتورع عن أن يتهجم على القساوسة ولكن كان في مقدوره أيضا أن يجلس معهم على مائدة الطعام إذا كانوا بمن يأكلون جيدا) أشخاص أقوياء يحكمو البناء من طراز سكان رابليه وهناك على المائدة شرر متلاحق من الفكاهات الجريئة . وضربات أيد على المنضدة ، وضحك صاخب . . وكان صدى ذلك المرح يصل إلى الخدم في المطبخ وإلى الجيران في الشارع فيشتركون فيه

ثم أصيب أوجستان العجوز بذبحة صدرية في يوم صائف شديد القَيْظ ، عندما شرع في النزول إلى قبو المنزل . وقد شمر ذراعيه - ليعبئ نبيذه في زجاجات . . وفي ظرف أربع وعشرين ساعة كان قد انتقل إلى العالم الآخر الذي لم يكن يؤمن به على الإطلاق . ارتحل مزوداً بكل اقداس الكنيسة ، كأى برجوازي رينى أصيل مؤمن بأفكار فولتير يستسلم للسر المقدس في آخر لحظة حتى لا تضايقه النساء ، ولأن الأمر سواء لديه ، ثم أنه لم يكن يستطيع الجزم بما سيحدث بعد ذلك .

وخلفه ابنه انطوان في أعماله . وكان رجلاً قصيراً بديناً أحمر الوجه ، بارق الأسارير ، حليق الذقن ، تاركا شعر عارضيه يمتد على خديه . . كان متسرعا في كلامه ، متلعثما ، كثير الضوضاء ، يكثر من الإشارات القصيرة التي تملؤها الجبوية ، لم يوهب ذكاء أبهى في الشئون المالية ولكنه كان صالحا لإدارة الأعمال ، إذ لم يكن عليه إلا أن يتابع

- في هدوء - تلك المشروعات التي بدأت والتي كانت آخذة في النمو لمجرد مرور الزمن عليها . وقد اكتسب في البلدة شهرة باعتباره رجل أعمال ، وإن لم يكن فضله في نجاح تلك الأعمال كبيراً ، إذ لم يكن لديه سوى الجد والانظام . وكان رجلاً شريفاً غاية في السرف فضلاً عن أنه كان يبعث في كل مكان شعوراً بالتقدير الجدير به . وكانت معاملته للناس تمتاز باللطف وعدم الالتواء ، وربما كان فيها كثير من رفع الكلفة في نظر البعض . ومع أنها كانت تعبر عن مشاعره أكثر من اللازم وأنها عامية إلى حد ما فإنها جعلته يتمتع بحب شعبي يبشر بالخير في مدينته الصغيرة والقرى المحيطة بها . وهو وإن لم يكن مبذراً في ماله - إلا أن انطوان كان ذا شعور فياض ، تفرق عيناه بالدموع في يسر ويشير منظر البؤس إثارة صادقة تجعل البائس نفسه يتأثر بها .

كانت السياسة تشغل من تفكيره حيزاً كبيراً ، شأنه في ذلك شأن أغلب رجال المدينة الصغيرة ، وكان جمهورياً معتدلاً ، شديد التحمس في اعتداله ، حراً شديد التعصب لحرية ، وطنياً يكره رجال الدين - كأيهم - كراهية بالغة . كان عضواً بالمجلس البلدي وكان يسره ويسر زملاءه أن يقوموا بعمل مضحك ضد قسيس القرية ، أو واعظ الصيام الذي كان يشير الحماس بدرجة كبيرة بين سيدات المدينة . ويجب ألا ننسى أن هذا الكره لرجال الدين في المدن الفرنسية الصغيرة كان دائماً - قل ذلك أو كثير - سبباً من أسباب الشجار العائلي ، الذي يتمثل تمثلاً

خفياً في ذلك العراك الصامت العنيف بين الأزواج والزوجات ، ذلك العراك الذي لا يخلو منه منزل تقريباً .

وكان انطوان جانان يدعى المقدرة الأدبية أيضاً وكان - كالريفيين أبناء جيله - يتغذى بالأدب اللاتيني الكلاسيكي الذي كان يحفظ منه - عن ظهر قلب - بعض الصفحات وكثيراً من أمثال لافونتين وبوالو . بوالو صاحب كتاب الفن الشعري وصاحب كتاب اللوتران - خاصة ، كما كان يحفظ لكاتب « العذراء » ولصغار الشعراء في القرن الثامن عشر - ثم أخذ يجتهد في أن ينظم شعراً على منوالهم . ولم يكن هو الوحيد بين معارفه ممن إستهوتهم هذه المسألة التي ازدادت بها شهرته . وكانت تروى عنه فكاهات شعرية ورباعيات ومقطوعات وشعر تهكمي وأغان بعضها جرى ، ، لاتنقصها روح المرح ولم يفته كذلك أن يتحدث عن أسرار الطعام الشهي في منظوماته . فإله الوحي في مقاطعة اللوار كثيراً ما كان ينفخ في بوقه ليتغنى على طريقة داتى الشهير .

هذا الرجل القصير القوى ، المرح ، النشيط ، تزوج فتاة ذات طباع تخالف طباعه تماماً هي ابنة قاضي البلدة واسمها لوسى دى فيليه . وآل دى فيليه - أو بالأحرى دفيليه (في كلمة واحدة) لأن اسمهم كان قد انشطر شطرين على مر الأيام - كما تنشط الحصاة عند انحدارها - كانوا قضاة كبراء عن كابر . وهم ينتمون لذلك المجلس القديم في العنصر البرلماني الفرنسي ممن كانت لديهم فكرة سامية عن القانون والواجب

وآداب اللياقة الاجتماعية ، كما كانوا يتمسكون بالكرامة الشخصية ولا سيما المهنية ، محصنين بنزاهة مطلقة على طريقة برودوم . وفي القرن الماضي كانوا قد احتكوا بمذهب الجانسينزم الثورى فورثوا عنه ذلك الشعور بالاحتقار للعقلية الجزئية إلى شيء من التشاؤم وقليل من التذمر فى نفس الوقت . لم يروا الحياة على صورتها الجميلة ، وبدلاً من أن يسووا مشكلاتها التى كانت تصادفهم كانوا على استعداد لإضافة مشا كل أخرى إليها حتى يحق لهم الشكوى . وكان للوسى دى فيليه بعض هذه الطباع بينما كان زوجها على عكس ذلك متفائلاً دون أن يكون مسرفاً فى تفاؤله . وكانت طويـلة تزيد عليه بمقدار الرأس ، نحيفة ممشوقة القد ، تعرف كيف تلبس ولكن فى أناقة غير مكتملة مما جعلها تظهر دائماً - وكأنها متعمدة - أكبر سناً من حقيقتها . كانت ذات فضائل أخلاقية عالية ولكنها كانت صارمة مع الناس إذ لم تكن تتسامح معهم فى الغلظة الواحدة ولا فى أيسر انحراف ، مما جعل الناس يعتقدون فيها البرود والإزدراء . كانت ورعة جداً ، وكان هذا الورع سبباً فى المناقشات المتصلة بين الزوجين ، ومع ذلك فقد كانا متحابين جداً . ومهما وقع بينهما من نزاع فلم يكن أحدهما ليستغنى عن الآخر . لم يكن أحدهما واقعياً أكثر من الآخر . أما هو فكانت تنقصه الخبرة بنفسيات الناس (كان معرضاً نفسه لأن يخدع دائماً أمام الوجوه الطيبة والكلمات المعسولة) وأما هى فكانت تنقصها تماماً الخبرة فى شئون الأعمال (إذ أنها ظلت دائماً بعيدة عنها ولذلك لم تهتم بها)

وكان لها طفلان : فتاة تسمى « أنطوانيت » وصبي يسمى « أوليفيه » . وكانت أنطوانيت تكبر أخاها بخمس سنوات .

كانت أنطوانيت جميلة سمراء ، ذات وجه مستدير فرنسي رشيق ، في ملامحه براءة ، لها عينان تشع منهما الحيوية ووجهة نائنة وذقن دقيق وأقف صغير مستقيم كما يقول في لطف رسام فرنسي قديم : « من تلك الأنوف الحادة النبيلة المتناهية في الجمال ، تجده به خلجة طفيفة لا تكاد ترى — تعطى ملامحها حيوية وتدل على الحركات التي تدور في نفسها عندما تتكلم وعندما تنصت ، وهي تدين لآبيها بالمرح وعدم الاكتراث .

أما أوليفيه فقد كان أشقر رقيقاً ، قصير القامة كأييه وإن كانت طبيعته تختلف عنه تماماً . أما عن صحته فقد تعرض أثناء طفولته لأمراض شديدة مستمرة . وبالرغم من أن هذا جعله مدللاً من قبل ذويه فإن ضعفه الجسدي جعله — في سن مبكر — صيباً خيالياً يميل إلى الحزن قليلاً ، كما جعله يخاف الموت ، غير مسلح أمام الحياة . كان يظل وحيداً ميلامته للوحشة والافتراق يهرب من اجتماعات الأطفال الآخرين ، إذ كان يشعر بعدم الارتياح معهم . كان يكره لعبهم وشجارهم ويشمئز من عنفهم ويدعهم يضربونه لا لتقص في شجاعته ولكن بسبب الخجل إذ كان يخاف الدفاع عن نفسه كما يخشى أن يؤذى أحداً .

ولولا أنه كان يحتذى بمركز أبيه لقامى من زملائه عذاباً نكراً .
كان رقيقاً ذا حساسية مرهفة لدرجة المرض ، فإن كلمة أو لمحة
عطف أو عتاب توجه إليه كانت كفيلة بأن تجعله يحش بالبكاء ،
مما دعا أخته — وهى تفوقه صحة — تسخر منه وتلقبه « بالنافورة
الصغيرة » .

وكان الطفلان متحابين من كل قلبيهما ، ولكن الاختلاف البين
فى طبيعتهما كان يجعل من الصعب عليهما العيش معا . فكان كل منهما
يسير فى ناحية وراء أحلامه وخيالاته . أما عن أنطوانيت فكانت
تزداد جمالا كلما كبرت ، تعرف ذلك بنفسها وتسمعه بأذنيها ولذا كانت
سعيدة . وأخذت تنسج لنفسها روايات عن المستقبل . أما أوليفيه ،
ذلك التحيل الحزين فكان يشعر فى دخيلة نفسه دائماً بأن المجتمع
الخارجى يخدشه كلما اتصل به ، ولذا كان يلجأ إلى عقله الصغير المحدود
يقص لنفسه شتى القصص ، وكان فى حاجة أثوية ملححة إلى أن يكون
محبا ومحجوبا . وبما أنه كان يعيش وحيداً بعيداً عن أولئك الذين فى سنه
فإنه اصطنع لنفسه صديقين أو ثلاثة سمي الأول « جان » والثانى «
« ايتين » ، والثالث « فرانسوا » . وكان دائماً معهم وكذلك كان غائب
الذهن عن حوله . وفى الصباح عندما ينتزعونه من سريره كان ينسى
نفسه تاركا ساقيه الصغيرتين العاريتين متدليتين من السرير . وأحيانا كثيرة
كان يلبس جوربيه فى ساق واحد ، بل كان ينسى يديه فى طشت الماء
وينسى نفسه على منضدة العمل وهو يكتب سطرأ . أو يتعلم درسا . فيستسلم

للأحلام لمدة ساعات ، ثم يلاحظ — فجأة وبفزع — أنه لم يتعلم شيئاً بعد . وفي العشاء كان يذهل حين يوجه إليه الكلام ، يجيب بعد دقيقتين من توجيه السؤال ويتوقف في وسط جملة وقد نسي ما يريد أن يقول . كان ينكمش منصتا لهمس أفكاره مستسلماً للاحاساسات الاليفة التي كانت تملأ أيام الريف الرتيبة التي تنساب في بطء : فكان يفكر في البيت الكبير الذي كانوا يسكنون جزءاً منه تاركين نصفه خالياً ، وفي الأقبية ومخازن الحبوب الضخمة المخيفة ، وفي الغرف المقفولة المبهمة ومصاريع النوافذ المغلقة والآثاث المغطى ، والمرابا المغطاة ، والشمعدانات الملفوفة والصور العائلية القديمة ذات الابتسامات المللزمة ، ولوحات العهد الامبراطورى التي تمثل البطولة الفاضلة والاباحية من مثل : السيباد وسقراط عند المحظية ومثل انطيوخوس وستراتونيس ، وقصة ايامينونداس وبلير الشحاذ . . وفي الخارج كان يفكر في صوت الحداد يعمل في الورشة المواجهة ورقصة المطارق العرجاء على السندان وصوت لهث المنفاخ الضعيف ، ورائحة القرن المحروق ، ثم صوت مطارق الغسالات الجالسات القرفصاء على شاطئ الماء ، وصوت الضربات الخافتة من سكنى الجزار فى البيت المجاور ، وخطوة حصان تدق على أرض الشارع المبلطة ، وصرير الطلبه ، والكوبرى وهو يدور على القنال ، والمراكب الثقيلة المحملة بأكوام الخشب - تمر بهدوء - مجرورة بحبل ، كل ذلك أمام الحديقة المرتفعة وفنائها الصغير المبلط الذى كان به حوض مربع من الطين حيث تنمو

زنبقتان وسط زهور القرنفل والبيتونيا ومجموعات الغار والرمان
المزهرة الموضوعة في صناديق على شرفة تعلو القنال . وأحياناً تسمع
ضوضاء السوق في الميدان المجاور ، الفلاحون بقمصانهم الزرقاء اللامعة
والخنازير الصائحة .. وفي يوم الأحد في الكنيسة الشماس الذي يترنم
بنغمات نشاذ والقسيس العجوز الذي ينام وهو يقول القداس والنزهة
العائلية على طريق المحطة حيث يقضون الوقت في تبادل التحيات -
برفع القبعات - مع بؤساء آخرين ممن يعتقدون أيضاً أنهم ملزمون
بالتنزه معاً .. حتى يصلوا أخيراً إلى الحقول المشمسة حيث القناير
تهتز خفية فوقها وحيث ترتعش الأشجار المتراحة على الجانبين طول
مياه القنال البراقة الرائدة . ثم هذه الولايم الكبيرة والأكلات
التي لا تنتهي ، حيث يدور الحديث حول مسائل الأكل في علم وتلاذذ .
لأنه لم يكن هناك سوى الخبراء في فن الطعام ولأن الشراقة - في الريف -
هي الشغل الشاغل ، الفن لذاته . ويتكلمون أيضاً عن الأعمال وعن
الموضوعات المرحية .. وهنا وهناك عن الأمراض بتفاصيل لا تنتهي .
والصبي الصغير وهو جالس في ركنه ، لا يسمع له صوت أكثر من
صوت فأر صغير ، يقرقط ولا يأكُل ، وإنما ينصت بكل أذنيه . لا يفوته
شيء وكان خياله يعينه إذا فاته شيء من الحديث . وكان يملك موهبة
فريدة تجعله يخمن أفكاره لم تخطر بباله من قبل وربما لم يفهم منها
إلا القليل ، هذه الموهبة يمتاز بها معظم أبناء العائلات العريقة حيث
انطبعت في أذهانهم آثار قرون من الزمن . وكان هناك بالطبع حيث

كانت تدور عمليات غامضة لذينة دموية . ثم الخادمة العجوز التي كانت تروى الأقاصيص الهزلية منها والمفرعة ، وأخيراً كان هناك الليل ، الخفافيش الصامته والفرع من الأشباح الخفيفة التي كان يعلم أنها تزاحم وتضطرب في باطن هذا المنزل العتيق كالفيران الكبيرة ، والعنكبوت الضخم المشعر ، ثم كانت هناك أيضاً الصلاة بجانب السرير وهو لا يسمع ما تتم شفتاه . وكان هناك صوت جرس المستوصف المتقطع المجاور للنزل وهو يعلن بدقائه للراهابات ساعة النوم ، ثم السرير الأبيض ، جزيرة الأحلام ..

كانت أروع أوقات السنة هي تلك التي يقضونها في ضيعة للعائلة على بعد فراسخ من المدينة في الربيع والخريف ، وهناك ، حيث لا يرى أحد ، يستطيع الإنسان أن يحلم كما يشاء . وكما هو الحال بالنسبة لمعظم البرجوازيين الصغار فقد حيل بين الطفلين وبين العامة من الناس كالخدم والمزارعين ، أولئك الذين كان يشعر الطفلان محوهم - في الحقيقة - بشيء من الخوف والاشمئزاز ولقد أخذوا عن أمهما احتقاراً ارستقراطياً ، أو بعبارة أدق ، برجوازيًا بالذات ، احتقاراً لأولئك الذين يعملون بأيديهم . كان أوليفيه يقضى طيلة أيامه قابلاً في فروع شجرة من أشجار الغرين يقرأ القصص الساحرة مثل الأساطير القديمة الأخاذة وحكايات موزيوس أو مدام دولنواي أو ألف ليلة وليلة أو روايات الرحلات وذلك لأنه كان يتوق إلى معرفة الأقطار البعيدة .. أحلام تسبح في المحيطات كتلك التي تأسر - أحياناً - قلوب صبيان المدن الصغيرة

فى المقاطعات الفرنسية . كانت مجموعة من الشجيرات المتنفة تخفى عنه .
المنزل ، فكان يمكنه الاعتقاد أنه قد ابتعد ، مع أنه كان يعرف أنه جد
قريب . . ولذا كان راضيا لأنه لم يكن يجب الابتعاد وحده كثيرا ،
فقد كان يشعر إذا ما ابتعد أنه قد فقد فى الطبيعة . . كانت الأشجار
تتأوج حوله ، ومن بين أوراق الشجر المتجمعة كأعشاش الطيور ،
كان يرى على بعد الكرمات المصفرة والمراعى الطبيعية حيث ترى
الأبقار المبرقشة التى يملأ صياحها البطء صمت الريف الساكن ،
وكانت أصوات الديكة الثاقبة تتردد من مزرعة لأخرى . وكانت
تسمع آلات ضرب القمح فى الأجران تتكرر فى غير انتظام .
وفى وسط هذا السكون الشامل كان هناك فيض متصل من حياة محمومة
لآلاف وآلاف من الكائنات الحية . وكان أوليفيه يلاحظ بعين قلقة
طواير التمل التى تسير فى سرعة دائمة وجوع النحل ذات الطنين
الذى يشبه صوت الأرنغ وقد أنقلت بالغنمة التى أتت بها من رحيق
الزهور ، والزناير الجميلة البلهاء التى لا تعرف ماذا تريد . . كان يراقب
ذلك العالم من الحشرات المشغولة التى تبدو وكأن بها رغبة ملحة فى أن
تصل إلى مكان ما . . ولكن أين ذلك المكان ؟ أنها لا تعرف لنفسها
مقصداً وذلك عندها غير ذى بال ، ويرتعد أوليفيه وسط هذا العالم
المعادى الذى لا يبصر ماحوله . . يرتعد كالخرفق لصوت ثمرة تسقط
من شجرة صنوبر أو لفرع شجرة جاف ينكسر . . ولكن كان يهدى

من روعه سماعه لصوت حلقات الأرجوحة حيث تتأرجح انطوانيت
في عنف في الطرف الآخر من الحديقة .

وكانت أنطوانيت تحلم هي الأخرى ولكن على طريقتهما .. كانت
تقضى طوال اليوم في الحديقة باحثة في كل مكان ، تأكل من كل شيء
وتستطلع كل شيء ، تضحك وتلتقط حبات العنب حيناً — وكأنها
عصفور — وتنزع الخوخ من عريشته في خفية حيناً آخر .. تتسلق
شجر البرقوق تارة أو تخبط عليه — وهي تمر — خبطات خفيفة خفية
ليتساقط منه الثمر الذهبي كالطر ، يذوب في الفم كشهد معطر ، أو كانت
تقطف الأزهار وإن كان ذلك ممنوعاً — تسرع فتتزعزعة كانت تشتمها
منذ الصباح وتخلص بها إلى الكشك في طرف الحديقة ، وهناك تدفن
أنفها الصغير بلذة في الورد المسكرة وتقبلها .. ثم تخفيها — شيئاً فشيئاً —
في صدرها .. ولقد كانت لها هواية أخرى ، حلوة ولكنها محرمة ،
تلك هي أن تخلع حذاءها وجواربها وتسير حافية القدمين ، على الرمل
الرطب في الممرات وعلى الحشائش المبللة في الأرض المخضرة وعلى
الطوب الثلج في الظل أو الحارق في الشمس .. أو تسير في الغدير
الصغير الذي ينساب على حافة الخيلة ، حيث تمس بقدميها وساقها
وركبتها الماء والأرض والضوء .. وكانت تنظر إلى يديها الشفافيتين
في ضوء الشمس وهي مستلقية في ظل شجر الصنوبر وتمر بشفتيها
على ذراعيها الدقيقتين الممتلئتين الناعمتي الملمس كأنها الجريز ..
وكانت تصنع تيجاناً وعقوداً وفساتين من أوراق شجر اللباب

وأوراق شجر البلوط وكانت ترشق بالحسك الأزرق وأشواك الفينيت الحمراء وأغصان الصنوبر الصغيرة بشمارها الخضراء، فكانت تبدو كأميرة صغيرة متوحشة - وكانت ترقص بمفردها حول نافورة الماء فكانت تدور وتدور - وذراعاها ممدودتان - حتى تدور رأسها وحتى تسقط على الأرض المخضرة مخبئة وجهها في الحشيش، ضاحكة من كل قلبها مدة طويلة دون أن تستطيع مقاومة الضحك ودون أن تعرف ما الذي يضحكها .

وهكذا كانت تمر أيام الطفلين، كانا على بعد خطوات من بعضهما ولكن لا يهتم أحدهما بالآخر اللهم إلا حينما يحلوا لأنطوانيت - أثناء مرورها بأخيا - أن تداعبه فتقذفه في أنفه بقبضة من ورق الصنوبر الإبرية، أو تهز شجرته مهددة إياها بأن تسقطه من فوقها أو تخيفه فتلقى بنفسها عليه وتصبح فجأة :

— هو اهو! ...

وكان يعترها أحيانا رغبة ملحة في معاكسته، فتجعله ينزل من شجرته متظاهرة بأن أمه تناديه وحين ينزل تصعد مكانه ولا تريد أن تتحرك على الإطلاق وعند ذلك يئن أوليفيه ويهدد بالشكوى . ولكن لم يكن هناك خوف من أن تظل أنطوانيت طويلا على الشجرة فإنها لا تستطيع البقاء في راحة أكثر من دقيقتين إذ بينما تكون في أوج سحريتها من أوليفيه وهي في أعلى الشجرة وبينها هي تغيطه كيفما شاء لها الغيط أن تفعل حتى يوشك على البكاء ، بينما تكون كذلك إذ هي تنزل

مسرعة إلى أسفل وترتمى عليه وتهزه ضاحكة منادية إياه « بالغبي الصغير، ثم تدحرجه على الأرض وهي تفرك آنفه بقبضة من الحشيش . ويكافح أوليفيه ما استطاع إلى المكافحة سبيلا ولكن لم يكن له من القوة ما يستطيع به الكفاح . وعند ذلك لا يتحرك ويظل مستلقيا على ظهره كالجلجل، قد سمرت ذراعه النحيلتان على الحشيش بأيدى أنطوانيت الصغيرتين القويتين واتخذ مظهراً مؤثراً بأبائهما مستسلماً . ولكن أنطوانيت لا تستطيع المقاومة إذ تنظر إليه وقد غلب على أمره وأسلم القيادة وتفجر في الضحك وتعانقه فجأة ثم تتركه ولكن بعد أن تدس في فمه بمشابة توديع له قطعة صغيرة من الحشيش الطازج ، ذلك الذى كان يكرهه كراهة تامة لأنه كان سريع الاشتزاز فيصق ويمسح فمه ويحتج في سخط بينما تهرب هي ضاحكة وقد أطلقت ساقها للريج .

كانت أنطوانيت تضحك دائماً . تضحك حتى في الليل وهي نائمة وكان أوليفيه الذى يرقد في الغرفة المجاورة - ولا يكاد يأتبه الكرى إلا لما - يرتعد وسط هذه القصص التى يقصها لنفسه حين يسمع هذه الضحكات الصاخبة وتلك الكلمات المتقطعة التى كانت تنطق بها فى سكون الليل . وفى الخارج كانت الأشجار تكاد تنكسر تحت هبوب الريح والبومة تنعق والكلاب تنبح فى القرى بعيداً وفى المزارع على الريح ، أطراف الخنازل وفى ضوء الليل الخافت كان أوليفيه يرى أغصان الصنوبر الثقيلة المعتمة تتحرك أمام نافذته كالاشباح وكان ضحك أنطوانيت يخفف ما به من خوف .

كان الطفلان متدينين جداً وخصوصاً أوليفيه وكان أبوهما يصدماهما بعقائده المنافية للدين ولكنه كان يتركهما أحراراً فقد كان في الحقيقة - كمعظم البرجوازيين الذين لا يؤمنون بالله - لا يغضب من أن ذويه يعتقدون نيابة عنه ، وذلك لأنه كان حريصاً على أن يكون على صلة طيبة بالفريق الآخر ، فليس المرء على يقين - إطلاقاً - من الناحية التي يتحول إليها الحظ . وعلى العموم فقد كان مؤمناً بالله وكان يحتفظ لنفسه بنحو إحضار قسيس - في الوقت المناسب - كما فعل أبوه: فإن كان هذا لا يفيد فإنه لا يمكن أن يلحق به ضرراً . وليس المرء في حاجة لأن يعتقد أنه سيحرق ليتخذ لنفسه تأميناً ضد الحريق .

كان أوليفيه السقيم يميل إلى التصوف وكان يخيل إليه أحياناً أنه غير موجود في هذا العالم ونظراً لأنه كان سريع التصديق شديد الإحساس فقد كان في حاجة إلى دعامة تسنده . كان يجد في الاعتراف لذة مشوبة بألم وكان عملاً حسناً - بالنسبة إليه - أن يركن إلى الله الصديق الخفي بذراعيه المفتوحتين دائماً ، ذلك الصديق الذي يستطيع أن يقول له كل شيء والذي يفهم كل شيء ويغفر كل شيء . كان يتذوق حلاوة الخضوع والحب حيث تخرج روحه نقية خالصة طاهرة مستريحة . وكان الاعتقاد بالله عنده شيئاً طبيعياً لدرجة أنه لم يكن يفهم

كيف يستطيع إنسان أن يشك . كان يعتقد أن الإنسان الذى يشك إما أنه يعتمد ذلك تعمداً مردولاً وإما أن الله يعاقبه . كان يصلى لأبيه سراً متمسكاً له الرحمة حتى ينعم الله عليه بالإيمان . وكم كان سروره عظيماً عندما زار كنيسة فى أحد الأقاليم مع أبيه — ذات يوم — فرآه يرسم علامة الصليب . وكانت قصص التاريخ المقدس تختلط عنده بالقصص الساحرة لروبيزاهل وجراسيوز وبرسينيه والخليفة هارون الرشيد . وعندما كان صغيراً كان لا يشك فى صحة هذه القصص جميعها كما أنه كان واثقاً من أنه يعرف سكا كاباك ذا الشفتين المشقوقتين والحلاق الثرثار والأحذب كاسجار كذلك حينما كان يتنزه كان يبحث بعينه فى الحقول عن طائر البيك الأسود الذى يحمل فى منقاره الجذر السحري للباحث عن الكنوز . يبحث عن كنعان وأرض الميعاد التى أصبحت بفضل خياله قرى مقاطعتى بوجونى والبيرى ، كان فى المقاطعة تل مستدير على قمة شجرة صغيرة كأنها ريشة قديمة فى قلنسوة قد فقدت بهاءها ، كان ذلك التل يبدو له كالجبل الذى أقام إبراهيم عليه الكومة . وكانت مجموعة من الأعشاب الجافة على حافة بعض الأغصان تبدو كالكومة المتقدة التى أطفأها الزمن . حتى حين لم يعد أوليفيه صغيراً جداً وعندما بدأت حاسة النقد تستيقظ عنده كان يجد لذة فى أن يترك خياله يسبح فى الخرافات الشعبية التى تزين بها العقيدة ، كان يتلذذ بتلك القصص إلى درجة تجعله يكاد يصدقها وإن لم يكن — فى حقيقة

الامر — يصدقها . وهكذا أخذ في يوم السبت المقدس — ولأمد بعيد — يترقب بلهفة عودة أجراس عيد الفصح التي خرجت إلى روما في يوم خميس للمهد والتي ترجع أصداؤها في الأجواء ومعها الأعلام الصغيرة . كان قد توصل أخيراً إلى إدراك أن هذا ليس حقيقياً . ولكنه لا يكاد يستمر في ذلك قليلاً إلا ويتطلع إلى السماء حينما يسمع الأجراس تدق . وذات مرة صور له الوهم أنه رأى جرساً ذا شرائط زرقاء يختفي فوق المنزل وإن كان يعلم جيداً أن هذا غير ممكن .

وكان في حاجة ملحة لأن يسبح في ذلك العالم حيث تبرز الخرافة بالإيمان. ولذا كان يهرب من الحياة ويهرب من نفسه وكان يقاسى من كونه هكذا : نحيلاً ، شاحباً ، سقيماً ، ولم يكن يحتمل أن يسمع الناس يقولون عنه ذلك . كان يحمل في دخيلة نفسه تشاؤماً غريزياً يرجع أنه قد ورثه عن أمه. ووجد ذلك التشاؤم أرضاً خصبة في ذلك الفتى الممرض . ولم يكن يتبين ذلك معتقداً أن كل الناس مثله ، وبدلاً من أن يقضى ذلك الرجل الصغير ، ذو العشر سنوات - بدلاً من أن يقضى أوقات راحته في اللعب في الحديقة ، كان يقبع في غرفته وقد أظلقها عليه يكتب وصيته بينما هو يقضم شيئاً من الطعام بعد الظهر .

كان يكتب كثيراً وكان يمعن في كتابة مذكراته كل مساء ، خفية ، لا يدرى هو لماذا ، لأنه لم يكن لديه ما يقول سوى التفاهات . وكانت الكتابة عنده عادة وراثية ، فقد كانت ضرورة يخضع لها براجوازيو

الريف الفرنسى ، ذلك الجنس العتيق الذى لا يفنى والذى يكتب
لنفسه كل يوم حتى يوم وفاته فى صبر أحق قد يصل إلى الاستبسال.
يكتب مذكرات مفصلة — كل يوم — عما قد رأى وما قال وما عمل
وما سمع وما شرب وما فكر وما أكل ، يكتب لنفسه ليس لأى
شخص آخر . لن يقرأه أحد أبدا وهو يعلم ذلك ، حتى هو نفسه لن
يقرأ ما كتب على الإطلاق .

وكانت الموسيقى بالنسبة لأولييفيه كالإيمان ملجأً يحتوى به مثلاً
يحتوى الإنسان من قيظ النهار . وكان كل من الأخ والأخت موسيقيين
بالطبيعة وخصوصاً أوليفيه الذى كان يدين لأمه بهذه الموهبة . وكان
ذوقهما الموسيقى فى حاجة إلى تقويم إلا أنه لم يوجد فى هذه الضيقة
من يستطيع أن ينمى فيهما هذا الذوق ، إذ أن كل أنغام الموسيقى
فى هذه المنطقة تنحصر ، تارة فى موسيقى فرقة البلدة التى كانت تعزف
غالباً ألحاناً عسكرية ، وفى أحسن أيامها ، تعرف بعض المنوعات لأدولف
آدم ، وتارة فى صوت أرغن الكنيسة وهو يردد القصائد ، وأخيراً
فى عزف بعض آنسات الطبقة البرجوازية أثناء تمريناتهن على البيانو ،
فمكن يخبطن على آلات غير دقيقة ، بعض مقطوعات الفالس أو البولكا
و د افتتاحية خليفة بغداد ، أو د هزى الصغير فى الصيد ، واثنين
أو ثلاثاً من سونات موزار ويكررنها دائماً ، ودائماً بنفس النشاز .
وذلك كان ضمن برنامج السهرات ، لا يتغير بتاتاً ، عندما كانوا يستقبلون
الزائرين فى منزلهم ، فكان من المقرر أن يطلب بعد العشاء من ذوى
المواهب إبرازها ، أما هؤلاء فكانوا يستقبلون فى بادئ الأمر هذا
الطلب بالرفض وقد علتهم حمرة الخجل . ثم يستجيون أخيراً لرجماء
الجماعة ويعزفون عن ظهر قلب أحسن مقطوعة لهم ، وفى النهاية يظهر
كل واحد من الحاضرين إعجابه بذاكرة الفنان وبراعته فى العزف .

هذا الحفل الذى كان يتكرر فى كل سهرة تقريباً كان يفسد على
الطفلين لذة العشاء وخصوصاً عندما كان يطلب منهما أن يقوموا معاً
بعزف مقطوعتهما « رحلة فى الضنين ، لبازان ، أو بعض ألحان ويير
القصيرة . كانت الثقة متبادلة بينهما ولذلك كانا لا يخشيان كثيراً هذه
المواقف . ولكن عندما كان يضطر أحدهما أن يعزف بمفرده يبدأ
العذاب . كانت انطوانيت كعادتها أشجع من أخيها ، ومع أن ذلك كان
يضايقها أشد المضايقة فإنها كانت تمثل ، علماً منها بأنه لا مفر من هذا
المأزق . فكانت تذهب إلى البيانو وتجلس فى عزم وتبدأ الروندو مسرعة
تتلجلج تارة وتضطرب تارة أخرى ثم تتوقف وتدير رأسها وهى
تبسم قائلة :

— آه لم أعد أتذكر ...

ثم تستأنف بشجاعة تاركة جزءاً من المقطوعة وتستمر حتى نهايتها .
وكانت لا تحاول إخفاء سرورها لانتهاؤها من العزف . وعندما كانت
تعود إلى مكانها وسط التهانى والمدح كانت تضحك قائلة :

— لقد أكثرت من الأخطاء ...

أما أوليفيه فكان طبعه أقل بساطة من أخته . فكان لا يمكنه
أن يظهر أمام جمهور ، وأن يكون موضع انتباه لجماعة بأكملها إذ أنه
يتعذب لمجرد الكلام فى حضرة الناس ، فما بالك حين يلعب أمام أشخاص
لا يحبون الموسيقى (كما كان يرى ذلك بوضوح) أو أكثر من هذا

أشخاص تضايقهم الموسيقى ، يطالبونك بالعزف لمجرد أنهم اعتادوا ذلك فقط . فكان رى فى ذلك ظله طالما حاول أن يثور عليه دون جدوى . فكان يرفض فى إصرار ، وكان يهرب فى بعض الليالى ويختبئ فى حجرة مظلمة أو أحد ممرات المنزل أو حتى فى حجرة المخزن رغم خوفه من العنكبوت . وكانت مقاومته هذه تزيد من الإلحاح مع شئ من التهم . وكان أهله يتولونه بالزجر والتأنيب يتخللها بعض الصفعات إذا استلزم الأمر عندما تصل درجة ثورته إلى الوقاحة . وكان ينتهى به الأمر دائماً إلى العزف . وكان هذا الوضع طبعاً غير سليم . فكان يتعذب طول الليل لأنه لم يحسن العزف وهو الذى يجب الموسيقى حباً جما .

ولم تكن البلدة الصغيرة ، فيما مضى ، على هذه الحال من الذوق الموسيقى المنحط ، إذ أنهم يذكرون عهداً كانت تسمع فيه موسيقى لا بأس بها عند اثنين أو ثلاث من الأسر البرجوازية . وكثيراً ما كانت تتكلم مدام جانان عن جدتها الذى كان يجر فى حرارة قوس الكمان الكبير كما كان يغنى ألحاناً من جلوك وداليراك وبرتون . كان لا يزال يوجد بالمنزل دفتر موسيقى كبير ومجموعة أوراق فيها ألحان إيطالية . فكان هذا العجوز المحبوب مثل أندريو الذى وصفه برليوز فقال : « كان يحب جلوك جداً ، ويضيف بأسف وخسرة » وكان يحب جداً بتشيني أيضاً . كان العجوز يفضل بتشيني وعلى أية حال فإن عدد الألحان الإيطالية كانت تفوق بكثير الألحان الأخرى فى مجموعة الجد ،

وقد كانت كلها بمثابة الخبز الموسيقى لأوليفيه الصغير ، فكان غذاء غير كاف شبيهاً بالحلوى الرديئة التى تصنع فى الأرياف والى يشبعون منها الأطفال ، فهى تضعف الذوق وتفسد المعدة وتهدد بإفساد الشبهة إلى الأبد عن تذوق الطعام الجيد . ولا يمكن لإتهام أوليفيه بالشراسة . إذ أنه لم يقدم له ما كولات غذائية صحيحة ، فكان يحرم من الخبز ويأكل الفطائر وهكذا ، بحكم الضرورة ، أصبح سياروزا وبيزيلو وروسينى أساتذة لهذا الصبي الصغير الذى يميل إلى الكتابة والتصوف ، هذا الصبي الذى كان يسكره قليلاً هذا المشروب القوى الذى كان يصبه له بدلاً من اللبن هؤلاء الأساتذة الهزليون السفهاء الذين كان تأثيرهم عليه مثل آلهة الأغر يق القدماء وكذلك برجوليز وبلينى هاتان الألهتان الصغيرتان الرشيقتان من مدينتى نابل وكاتان بابتسامتهما الساذجة الشهوانية وبدمعهما الجميل الذى يترقرق فى عينيهما . فكثيراً ما كان يعزف أوليفيه على انفراد ولمتعة الشخصية . كان منشعباً بها وكان يستسلم للذتها غير محاول أن يتفهم معانى ما كان يعزفه ، لم يفكر أحد فى تلقينه دروساً فى الإيقاع وهو أيضاً لم يهتم بذلك ، كانت هذه العائلة وخصوصاً من ناحية الأم خالية الذهن تماماً عن كل ما يتعلق بالعلوم أو التفكير العلبى ، هؤلاء رجال القانون المحبون للفنون والآداب والمطلعون على الآداب القديمة ، كانوا لا يفقهون شيئاً فى مسألة حساية ولذا كانوا يذكرون أحد أفراد الأسرة — وكان على صلة بعيدة بها — كشخص خارق للعادة

لأنه عمل في مكتب الارصادوزيادة على ذلك فقد قيل أنه أصيب بالجنون نتيجة لعمله هذا . إن الطبقة البرجوازية العتيقة في الاقاليم تتمتع بعقل قوى واقعى ولكن أصابه الخنود لطول التفكير في ذاته وسير الأيام على وتيرة واحدة وهذه الطبقة لها ثقة بالغة في عقلها وثقتها به تبلغ حداً يجعلها تؤمن بأنه كفيـل بحل أية مشكلة تعترضها مهما عظم شأنها ، والبرجوازية تميل إلى الاعتقاد بأن رجال العلم ليسوا إلا نوعاً من الفنانين ، أنهم ربما كانوا أكثر فائدة ولكنهم أقل شأنًا من معظمهم ، لأن المعروف عن الفنانين أنهم لا يفيدون في شيء وأن في تكاسلهم شيئاً من الرقي على حين أن العلماء لا يختلفون كثيراً عن العمال ، يشتغلون بأيديهم وهذا ما يشينهم ، هم نوع من رؤساء العمال أكثر من الفنانين علماً ولكنهم مختلفون قليلاً ، تظهر قوتهم على الورق ولكنهم إذا خرجوا عن نطاق أعدادهم لا يعرفون شيئاً ، لا يمكنهم الوصول إلى هدف إن لم يتول قيادتهم أهل الرشد ، هؤلاء الذين يتمتعون بخبرة في الحياة وبخبرة في الأعمال .

والطامة الكبرى أن ليس هناك ما يؤكد أن هذه الخبرة بالحياة والأعمال تبلغ هذه المنزلة التي يتوهمها أهل الرشد ، وإنما هي بالاحرى خبرة ممارسة تحمل عدداً يسيراً جداً من الحالات البسيطة ، فإذا ما حدث ظرف خارق يستلزم الجزم في سرعة وعزم نجدهم مجردين من السلاح . وكان الصير في جانان من هذا النوع من الرجال ، كانت الأمور تتكرر في صورة لا تتغير داخل أطار الحياة الريفية ولذلك كان جانان

على علم دائم بما سوف يحدث ولم تقابله صعوبات حقيقية في أعماله حتى الآن ، خلف أباه في عمله كصير في دون استعداد خاص لهذه المهنة. وبما أن الأمور سارت على مايرام منذ بدئه في العمل فإنه كان يعتقد أن الفخر في ذلك يعزى إلى مواهبه الطبيعية ، وقد اعتاد أن يقول أنه يكفي للبر أن يكون نزيهاً مجداً عاقلاً للقيام بهذا العمل ، وكان في نيته أن يورث عمله ابنه دون أن يهتم بميول الطفل مثلاً فعل أبوه بالنسبة إليه. ولكنه لم يعد له لذلك العمل إذ أنه كان يترك أطفاله يفعلون ما يريدون بشرط أن يكونوا أطفالاً فضلاء وعلى الأخص أن يكونوا سعداء إذ كان يحبهم لدرجة العبادة ، لذلك كان الأطفال غير مؤهلين على الإطلاق للكفاح في الحياة كالآزهار التي تنبت داخل بيوت زجاجية ، ولكن أليست تلك هي الحياة التي سيجيئونها دائماً ؟ في هذه البلدة الحاملة وسط هذه العائلة الثرية الكريمة ، ومع هذا الأب المرح الذي يحيطه الأصدقاء ويتمتع بمركز من أحسن مراكز البلد ، ولذا كانت الحياة بالنسبة إليهم سهلة ضاحكة .

وقد كانت انطوانيت في السادسة عشر من عمرها ، أما أوليفيه فكان على وشك أن يتلقى المناولة الأولى (وهي سر من أسرار الكنيسة) وكان يعيش خاملاً وسط طنين أحلامه الغامضة . أما انطوانيت فكانت تنصت بتلذذ إلى صوت الأمل المسكر وهو يشدو كالبلبل في الربيع ، ويملأ القلوب المرحّة الشابّة وكانت تسعد بالشعور بأن جسدها وروحها يزدهران . وكانت تعلم أنها جميلة وتتلذذ عندما يذكرون لها ذلك ، وكان مدح أبيها وكلماته الجريئة كفيلة بأن تلعب بذهنها ، وكان أبوها معجباً جداً بها يفرح لتدلّ لها ونظراتها المتمهّلة في المرأة ومكرها البريء . ولكن في شيء من الخبث ، فكان يجلسها على ركبته وكثيراً ما كان يعا كسها بخصوص قلبها الصغير وانتصاراته في ميدان الحب ، وطلبات الزواج التي كان يدعى أنها وصلتته ويعدها لها . كلهم من البورجوازيين المحترمين . وكل واحد منهم أكبر سنّاً وأقبح شكلاً من الآخر فكانت تصرخ باشمئزاز وترسل ضحكاتنا عاليا وهي تلف ذراعيها حول عنق أبيها ووجهها راقدًا فوق خده ، فكان يسألها من سيكون المختار السعيد : هل هو رئيس النيابة الجمهورية التي تقول عنه خادمة آل جانان العجوز أنه قبيح مثل الخطايا السبع الرئيسية أم أنها تفضل الموثق البدن . فكانت تضربه ضربات خفيفة

لتسكته أو تغلق له فمه بيديها فكان يقبل هاتين اليدين الصغيرتين
وينفى لها وهو يؤرجحها على ركبتيه هذه الأغنية المعروفة :

ماذا تريدن أيتها الجميلة .

أهو زوج قبيح جدا ؟

فكانت تجيبه وهى تنفجر ضاحكة بهذا اللحن المتكرر فى الأغنية
وهى تعتقد له شعر عارضتيه تحت ذقنه :

يكون جميلا خير من أن يكون قبيحا .

أيتها السيدة من فضلك .

وفى قرارة نفسها كانت تعزم اختيار زوجها بنفسها . وكانت تعلم
أنها غنية وأنها ستكون غنية (إذ أن أباهما كان يفهمها ذلك بكل
الطرق) وستكون عروسا مشتهاة ، وأخذت العائلات الكبيرة التى
فى البلد ، والتى لها أبناء ، تلاحظها منذ ذلك الحين ناصبة حولها شبا كآ
لا يصعب على أحد فهمها ، من التملق البسيط والمكر الماهر ، لتتمكن
من صيد هذه السمكة الفضية الجميلة ، ولكن هذه السمكة مستعدة
لأن تفلت منهم بسهولة . لأن انطوانيت الذكية لم يفتها شيء من
حيلهم هذه ، بل كانت تقسلى بها ، لم تمنع فى الزواج بشرط ألا يتعارض
ذلك مع إرادتها . إذ اكتمل فى مخيلتها الصغيرة الشخص الذى تريد
الاقتران به .

وفي كل بلدة من بلاد الريف الفرنسى توجد أسرة تعتبر أعرق أسرة ، تدعى أنها سلية الإشراف القدماء ولاية المقاطعة ، ولكنها تنحدر فى معظم الأحيان من أحد الذين اشتروا الأموال المصادرة أثناء الثورة الفرنسية ، أو أحد رجال المال فى القرن الثامن عشر ، أو أحد متعهدى جيوش نابليون . وفى هذه البلدة كانت أعرق الأسر أسرة آل بونيفيه . وقد أخذت تتقرب من آل جانان . وكانت تمتلك ، على بعد فرسخين من البلدة قصرأ ذا أبراج عالية مغطاة بالآردواز اللامع فى شكل مدبب . وكان هذا القصر يقع وسط الخنائل الكبيرة التى تتخللها الغدران المليئة بالأسماك . وكان بونيفيه الصغير يحاول ملاطفة انطوانيت وهو شاب وسيم الطلعة ، قوى ، بدين بالنسبة لسنه ، لا يعمل شيئاً طيلة نهاره سوى الصيد والاكل والشرب والنوم ، يركب الخيل ويلعب بالرقص ، رقيق إلى حد ما ، فى معاملته ولم يكن غباؤه يزيد على غباء أى شخص آخر . فكان يحضر بين حين وحين من القصر إلى البلد لابساً الحزمات ممتطياً جواده أورا كبا عربته الصغيرة ، ويزور صاحب المصرف متعللاً ببعض الأعمال ، وأحياناً كان يحضر معه ثمار صيده أو طاقة كبيرة من الورد يقدمها لسيدات آل جانان ، وكان ينتهز هذه الفرصة ليلطف انطوانيت ويتنزهها معا فى الحديقة ويوجه إليها المدح بأسلوب بدائى ويمزج بلطف وهو يقتل شارييه ويضرب أرض الشرق بمهمازه . وكانت انطوانيت تجده جذاباً ، إذ أن كبرياءها وقلبها كانا يشعران بالرضا إلى جانبه .

فكانت تسلم نفسها لهذه الساعات الأولى العذبة من الحب الصياني .
أما أوليفيه فكان يكره ذلك الشريف لقوته وثقله وشراسته ولأنه
كان يضحك بصوت عال ، وأيضاً لأن له يدين تضغطان على يديه
كالكلابات ولأنه كان يناديه دائماً في شيء من الازدراء وهو يقربه
في خده « أيها الصغير » . وكان يكرمه على الأخص — ولكن دون
وعى فيه — لأن هذا الغريب يحب أخته .. أخته هو .. ملكه هو ..
هو فقط دون غيره ..

ومع ذلك فقد كانت الكارثة في طريقها إليهم ، وفي حياة أمثال هذه العائلات البرجوازية القديمة التي تنسبت بنفس المربع من الأرض منذ أجيال وتستنفذ كل عصاراتها ، لا بد — إن عاجلاً أو آجلاً — أن تقع مثل هذه الكارثة . إن هذه العائلات تنام مطمئنة ، معتقدة أنها خالدة مثل الأرض التي تحملها . ولكن الأرض جفت تحتها ولم يعد لها جذور ، فضربة فأس واحدة تكفي لأن تهت كل شيء . وعندئذ يبدأ الحديث عن سوء الحظ وعن المصائب غير المنتظرة . لو كانت شجرة الأسرة أكثر مقاومة لما كان هناك سوء حظ ، أو على الأقل لمرت التجربة كريح عاصفة ، بعد أن تنزع بعض الفروع ودون أن تززع الشجرة أبداً .

كان د جانان ، صاحب المصرف رجلاً ضعيفاً كبير الثقة بنفسه ، مغروراً إلى حد ما ، وكان يلذ له — ذراً الرماد في العيون — أن يخلط متعمداً بين المظهر والواقع . كان يبعثر الأموال بغير ترو ولكن الواقع أن هذا التبذير الذي أخذت عادات التدبير المتوارث تلتطف من حدته لم يكن لينقص كثيراً من ماله (فقد كان يجود بثمر مكعب من الخشب في الوقت الذي كان يخل فيه بعود من الشقاب) إلى جانب ذلك فهو لم يكن شديد الحذر في أعماله ، فلم يكن يرفض أبداً

أن يقرض أصدقاءه ولم يكن من الصعب على المرء أن يكون من أصدقائه ، حتى الإيصالات لم يكن يهتم دائماً بأخذها ، كان مهملاً في احتساب ديونه التي لم يكن قط ليطالب بها إن لم يتقدم الدائنون بردها بأنفسهم وكان يعتمد على حسن نية الآخرين كما كان ينتظر من الآخرين أن يعتمدوا على حسن نيته . والواقع أنه كان أكثر خجلاً مما توصى به معاملاته الصريحة البعيدة عن الكلفة . ولم يكن أبداً ليجرؤ على رد بعض السائلين الشديدي الإلحاح ، أو على إظهار مخاوفه من مقدرتهم على السداد . وكان في تصرفاته تلك طيبة مزوجة بالضعف . ولم يكن يريد أن يخرج أحداً وهو يخشى أن يجرحه أحد ، لذلك كان يستسلم دائماً . ولكي يخدع نفسه كان يقدم ماله بحماس يخيل إليك معه أنك تخدمه إذ قبله منه . وأوشك أن يقنع نفسه بأن تلك هي الحقيقة ، فإن تفاوله وكبريائه كانا يقنعانه بسهولة بأن كل ما يؤديه لا بد وأن يكون عملاً طيباً . ولم تكن هذه التصرفات لتبعد عنه عطف المدينين . كان الفلاحون يعبدونه وهم يعرفون أن في استطاعتهم دائماً الإلتجاء إلى عطفه ، وكانوا يسرفون في ذلك ولم يخيب جانان رجاءهم أبداً . ولكن ، اعتراف الناس بالجميل ، حتى الطيبين منهم ، كالفاكهة يجب جمعها في أوانها . أما إذا تركت زمناً على الشجرة ، فلن تلبث أن تفسد . وعندما تمر بضعة شهور يكون عملاء جانان قد ألفوا التفكير في أن هذه الخدمة إنما هي واجب يؤدي لهم ، بل أنهم كانوا يميلون إلى الاعتقاد بأن جانان — وقد أظهر هذا السرور المتناهي لمساعدتهم — لا بد واجد

له منفعة فى ذلك ، وكان أرقهم شعورا يعتبرون أنفسهم قد تخلصوا — إن لم يكن من الديون فعلى الأقل من العرقان بالجمل — لو أهدوا صاحب المصرف ، يوم سوق البـلـد ، أرنبا برى اصطادوه أو سلة من بيض دجاجهم .

ولما لم يكن جانان ، حتى الآن ، قد تعامل فى الواقع إلا بأموال صغيرة ومع أناس معظمهم شرفاء فلم يكن هناك خطر يذكر . كانت الخسائر طفيفة ولم يبح بها لأحد . ولكن الأمر تغير عندما وجد جانان نفسه أمام محتال كان يزعم القيام بمشروع صناعى ضخم ، وكان على دراية بتساهل صاحب المصرف وبموارده المالية . هذا الشخص الذى كان يتظاهر بالعظمة والذى كان يتحلى بوسام جوقه الشرف ويدعى الصداقة لاثنتين أو ثلاثة من الوزراء ولأحد المطارنة وللمجموعة من أعضاء مجلس الشيوخ : كما كان يدعى صداقة شخصيات مختلفة من مشاهير رجال المال والأدب وصداقة إحدى الصحف القوية النفوذ . ذلك الرجل كان يتصرف بمهارة فائقة تتفق وطباع جانان . وكان الأسلوب الذى استعمله معه صارماً وودياً فى نفس الوقت . ولكى يقوى مركزه ، عرض على جانان رسائل من المديح العادى تلقاها من بعض معارفه من العظماء يشكرونه فيها على دعوة لعشاء أو يدعونه بدورهم . كان يعرض تلك الرسائل بطريقة غليظة يمكن أن تثير من يكون أكثر رقة من جانان . والمعروف عن الفرنسيين أنهم (٣٢ — اضلوانيت)

لا يقرّون في عملة الرسائل هذه وأنهم يتقبلون بسهولة مصافحة الأيدي ، ودعوات أشخاص لم يمض على معرفتهم بهم أكثر من ساعة ، بشرط أن يسلوهم ولا يطلبوا شيئاً من مالهم . ثم أنهم قد لا يخلون بمالهم نحو الصديق الجديد إذا سبقهم إلى ذلك آخرون ، والرجل اللبيب الذى يحاول أن يربح جاره من ضائقة المالة سيكون سيء الحظ إذا لم ينته بإيجاد الشخص الذى يقبل أن يكون أول من يبدأ لينساق وراءه القطيع ، وحتى إذا لم يكن ثمة قطيع قبل جانان فقد كان هو نفسه على استعداد لأن يبدأ بالتضحية . لقد كان جانان من ذلك النوع الجيد من الأغنام الغزيرة الصوف التى خلقت لتجز . وخدعه هذا الرجل بما له من علاقات طيبة ، وبفصاحته ومداهنته . كما خدعته نصائحه بما أتت من نتائج طيبة في أول الأمر وبدأ يخاطر قليلاً ونجح . وحينئذ خاطر بالكثير . ثم خاطر بكل ما لديه : ليس بماله فحسب ولكن بمال عملاته أيضاً ، وكان يأبى أن يخبرهم بذلك لتأكده من الربح وكان يريد أن يبهزم بخدماته .

وإذا بالمشروع يفشل وعلم ذلك بطريق غير مباشر من أحد مراسليه الباريسيين الذى قال له كلمة عابرة عن الإفلاس الأخير ، وهو لا يدري أن جانان كان من بين الضحايا ، ذلك لأن صاحب المصرف لم يكن قد باح لأحد بشئ . وكان قد أهمل — أو هو تجنب على ما يبدو — ببساطة يصعب إدراكها طلب النصيحة عند القادرين

على إرشاده . كان قد عمل كل شيء سراً ، معجباً بحسن إدراكه الذى ظنه معصوماً من الخطأ ، مكتفياً بمعلومات غامضة عن الموضوع . والحياة فيها مثل هذه الأخطاء الجسيمة : ففى بعض الأحيان يدفع الإنسان بنفسه إلى الهلاك المحتوم ويبدو حينئذ أنه يخاف من مساعدة الغير له ، فهو يهرب من كل نصيحة يمكن أن تنقذه ، إنه يختبئ ، ويسرع فى لطفه ليلقى بنفسه فى الفراغ بمحض اختياره .

هرع جانان إلى المحطة ليأخذ القطار إلى باريس وقلبه مليء بالحسرة . لقد ذهب للبحث عن صاحبه ، صاحب المشروع الضخم ، كان ما يزال يخدع نفسه أملاً فى أن تكون الأخبار كاذبة ، أو على الأقل مبالغاً فيها . ولم يجد صاحبة ، فتأكد من الخراب الدائم . وعاد محمواً ولكنه يكتم كل شيء . ولم يكن الشك ، حتى ذلك الوقت ، قد تطرق إلى الأذهان ، فحاول جانان أن يكسب بضعة أسابيع أو حتى بضعة أيام ، حاول — بتفاؤله الذى لا دواء له — أن يقنع نفسه بأن فى استطاعته إيجاد حل لتعويض خسائره ، أو على الأقل الخسائر التى كبدها عملاءه . حاول محاولات عديدة باندفاعه الآخرق الذى كان من شأنه أن ينتزع منه كل فرصة فى النجاة — لو كان هناك أمل . أراد أن يقترض ققوبل بالرفض فى كل مكان . ودفعه اليأس إلى مضاربات خطيرة جازف فيها بالقليل الذى تبقى له وكانت سبباً فى ضياعه النهائى . ومن ذلك الحين تغيرت طباعه تغيراً كاملاً . كان لا يتكلم

عن أى شىء ولكنه بدا محتداً ، عنيفاً ، قاسياً حزيناً حزناً مخيفاً . ومع ذلك فقد ظل يتظاهر بالبشاشة مع الغرباء ؛ ولكن اضطرابه لم يخف على أحد . وكانوا يرجعون ذلك إلى سوء صحته . أما مع أفراد عائلته فقد كان أقل مراقبة لنفسه ، وكانوا هم قد لاحظوا أنه يخفى شيئاً خطيراً ، ولقد تغير تغيراً كاملاً ، فأحياناً كان يهجم على إحدى الغرف ليفتش دولاباً ما ويبحث الأوراق على الأرض ، ثم ينفجر فى ثورة من الغضب ، عندما لا يجد ما يريد أو عندما يتقدم أحد لمساعدته . ثم يظل غارقاً فى هذه الفوضى ، وإذا سأله عن بغيته ، كان هو نفسه لا يدري . وبدأ لا يهتم بأفراد أسرته ، أو أنه كان يقبلهم والدموع فى عينيه وأصبح لا ينام ولا يأكل .

وشعرت زوجته أن كارثة ما على وشك الوقوع ولكنها لم تتعود أبداً أن تشارك زوجها فى أعماله . فقد كانت لا تفهم فيها شيئاً . ومع ذلك سأله عن الأمر قهرها بشدة وعندئذ لم تعاود الكرة ، بعد أن جرح شعورها ، ولكنها كانت ترتعد دون أن تدري لذلك سبباً .

ولم يستطع الأولاد أن يدركوا الخطر . أما انطوانات فكانت من الذكاء بحيث أحست — مثل أمها وأخيها — بكارثة تقترب ولكن حبها الوليد كان قد ملك عليها كل تفكيرها ، لم تكن تريد أن تفكر قلقها ، كانت تقنع نفسها بأن الغيوم لن تلبث أن تزول من نفسها ،

أو أنه من الممكن أن يكون هناك متسع من الوقت لأن تواجهها إذا لم يكن هناك مفر من ذلك .

وربما كان أوليفيه الصغير أقرب إلى فهم ما يدور في نفس صاحب المصرف المسكين . كان يشعر أن أباه يتألم . وكان يتألم معه سرا . ولكنه لم يكن يجرؤ على أن يقول شيئاً . كان عديم الحيلة ولم يكن يعرف شيئاً . ثم أنه هو الآخر كان يبعد تفكيره عن هذه الأشياء المقبضة التي تخرج عن دائرة تفكيره . وكان — مثل أمه وأخته — يميل إلى الاعتقاد الباطل بأن النكبات التي لا يريد أن تحدث قد لا تحدث . إن الضعفاء عندما يشعرون بالخطر يفعلون كالنعامة ، يخشون رؤوسهم خلف حجر متخيلين أن النكبة لا تراه .

وبدأت الإشاعات المقلقة تنتشر . قيل إن الثقة بالمصرف بدأت
تزعزع . وعبثاً حاول صاحب المصرف أن يصطنع الثبات أمام عملائه ،
فقد شك بعضهم في الأمر وطالبوا باسترداد أموالهم . وشعر جانان
بأنه ضائع لا محالة ، وأخذ يدافع دفاع اليائس متظاهراً بالغضب ، أخذاً
على الناس — بكبرياء ومرارة — شكهم في أمره . وبلغ به الأمر أن احتد
على بعض عملائه القدامى بما أفقده ثقة الناس نهائياً . وتدقت المطالبات
بالسداد على المصرف . ووجد جانان نفسه أمام الأمر الواقع وضيق
عليه عملاؤه الخناق ففقد صوابه تماماً . وقام برحلة قصيرة إلى إحدى
المدن القريبة الشهيرة بمياهها المعدنية حيث قامر في أحد الكازينوات
بكل ما تبقى معه من مال ، وأضاع كل شيء في ربيع ساعة ثم عاد .
وكان رجيله المفاجيء قد قلب المدينة الصغيرة إذ سرعان ما قيل
أنه كان هارباً ، ووجدت زوجته صعوبة كبيرة في مقاومة قلق الناس
الغنيف ، توسلت إليهم أن يصبروا وأقسمت لهم أن زوجها سيعود ،
ولكنهم لم يصدقوا بالرغم من أنهم كانوا يريدون أن يصدقوا . لذلك
كانت عودته — عندما علوا بها — سلوى للجميع . ولم يكن بعيداً
على تفكير الكثيرين أن قلقهم كان في غير محله وإن أسره جانان
كانت من الذهاء بحيث تستطيع دائماً أن تتخلص من العثرات
لو سلينا بأنها قد وقعت فيها ؛ وكان مسلك صاحب المصرف
يؤيد ذلك الشعور . والآن بعد أن لم يعد لديه أدنى شك فيما كان عليه

أن يفعله بدا متعباً ولكن هادئاً جداً . وعندما نزل من القطار وسار في طريقه قابل بعض الأصدقاء وأخذ يتحدث إليهم باطمئنان . حدثهم عن الريف الذى فضبت مياهه منذ أسابيع ، وعن الكروم الجميلة ، وعن سقوط الوزارة التى أعلنتها صحف المساء .

ولما وصل إلى المنزل تظاهر بعدم الإكتراث لاضطراب زوجته التى أسرعته نحوه لتقص عليه ، فى لطفة واضطراب ، ما حدث أثناء غيابه . حاولت أن تقرأ على وجهه إذا كان قد استطاع أن يدفع الخطر المجهول ، ومع ذلك فلم يسمح لها بكبرياؤها أن تسأله عن أى شئ . كانت تنتظر أن يبدأ هو الحديث . ولكنه لم يفه بكلمة واحدة عما كان يشغل بالهما . وأزاح بصمت ورفق رغبته فى أن تتودد إليه لتجعله يفضى إليها بأسراره . تحدث عن حرارة الجو ، عن تعب ، وشكا من ألم شديد فى رأسه ، ثم جلسوا جميعاً حول المائدة كالعادة .

كان قليل الحديث ، متعباً ، شارد الذهن ، مقطب الجبين ، ينقر على المائدة بأصابعه ، حاول جهده أن يأكل وهو يعلم أن السكل يراقبه . وأخذ ينظر نظرات زائغة نحو أولاده الخائفين من السكون ونحو زوجته المتمسكة بكبرياتها والتى كانت تراقب حركاته دون أن تنظر إليه .

وقبل أن ينتهى العشاء بدا أنه استيقظ ، فأخذ يتحدث إلى انطوانيت وأوليفيه . سألهما عما فعلاه أثناء رحلته ، ولكنه لم يسمع الإجابة ، لم يسمع إلا صدى أصواتهما ؛ وبالرغم من أن عيونه كانت مثبتة عليهما

إلا أن نظراته كانت زائغة .. وشعر بذلك أوليفيه فتوقف عن حكاياته ولم يعد لديه الرغبة في مواصلة الحديث . أما انطوانيت فقد بدأت تبتهج بعد لحظة من الضيق وأخذت تتحدث ، كمصفور مرح ، واضعة يدها فوق يدايها ، أو ممسكة ذراعه لتجعله ينصت جيداً لما تقص عليه . ولم يتكلم جانان . وأخذت نظراته تنتقل بين انطوانيت وأوليفيه وتغضنات جبينه تزداد وضوحاً . وبينما كانت انطوانيت في منتصف حديث لها ، لم يستطع هو أن يخفي ما في نفسه أكثر من ذلك ، فترك المائدة واتجه إلى النافذة لكي يخفي اضطرابه . وطوى الأولاد مناشفهم وقاموا هم أيضاً . أرسلتهم أمهم ليلعبوا في الحديقة ، وما لبثوا حتى سمعت صيحاتهم الرقيقة وهم يتناهبون في الممرات . ونظرت مدام جانان إلى زوجها الذي أدار لها ظهره ودارت حول المائدة متظاهرة بأنها تريد ترتيب شيء ما . وجأة اقتربت منه وقالت له بصوت يخنقه الاضطراب والخوف من أن يسمعها الخدم :

— أخيراً يا أنطوان ، ماذا بك ؟ أن بك شيئاً .. نعم ! أنت تخفي شيئاً .. هل حدث مكروه ؟ أأنت مريض ؟

ولكن جانان ، هز كتفيه علامة على نقاد صبره ، وأبعدها عنه مرة أخرى قائلاً بلهجة قاسية :

— لا ، أقول لك لا ادعيني وشأني !

وابتعدت عنه وهي غاضبة تقول لنفسها أثناء غضبها الأحق أنها لن تكترث بعد الآن مهما حدث لزوجها .

ونزل جانان إلى الحديقة . كانت انطوانيت ما تزال تواصل مجونها وتضايق أخاها لتجعله يجرى أمامها . ولكن أخاها أعلن لجأه أنه لم يعد يريد أن يلعب واعتمد بمرقه على حائط الشرفة على بعد خطوات من أبيه . وحاولت انطوانيت مرة أخرى معاكسته ، ولكنه أبعدما عنه بأن تجهم لها . فألقت إليه بعض العبارات لا غاظته ، ولم يكن هناك أى مجال للعب فى الحديقة ودخلت المنزل وجلست إلى البيانو .

وظل جانان وأوليفيه وحدهما .

وسأل جانان ابنه بهدوء :

— ماذا بك يا صغيرى ؟ ولماذا لم تعد تريد أن تلعب ؟

— إتنى متعب يا أبتاه .

— حسناً إذن دعنا نجلس قليلا على هذا المقعد .

وجلسا . كانت ليلة جميلة من ليالى سبتمبر . السماء صافية ومعتمة . ورائحة « البتونيا » العطرة تمتزج بالرائحة المتعطنة الكريهة بعض الشيء التى تخرج من القناة الراكدة تحت حائط الشرفة . وكانت فراشات المساء الكبيرة الشقراء ترفرف بأجنحتها حول الازهار محدثة صوتاً يشبه صوت المغازل الصغيرة . وعلى الضفة الأخرى للقناة كان صدى

أصوات الجيران الجالسين أمام أبواب بيوتهم يرن في السكون .
وفي داخل المنزل كانت انطوائت تعزف على البيانو مقطوعات إيطالية
خفيفة ذات أنغام مرحة . أما جانان فقد وضع يد أوليفيه في يده .
كان يدخن وكان أوليفيه يرى في الظلام الذى أخذ يخنق تقاطيع وجه
أبيه ضوء الغليون الخافت . كان الغليون يشتعل ، ثم ينطفئ قليلاً ،
ثم يعود فيشتعل ويتهى بأن ينطفئ نهائياً . كانوا لا يتحدثون . وسأل
أوليفيه عن أسماء بعض النجوم وكان أبوه — مثل معظم
البورجوازيين في الأرياف — جاهلاً بالطبيعات ولا يعرف اسم
أى نجم ، اللهم إلا الأبراج الكبيرة التى لا يجهل أسماءها أحد . ولكنه
تظاهر بأن ابنه يسأل عن هذه الأبراج بالذات فسماها له . ولم يعارض
أوليفيه فقد كان يجد دائماً لذة فى أن يستمع إلى تلك الأسماء الغريبة
ويرددها بصوت خافت . ومع ذلك فقد كانت رغبته فى المعرفة حينذاك
أقل من ميله الطبيعى فى التقرب من أبيه . وسكت الإثنان . وكان
أوليفيه يتأمل النجوم ، فاغرافاه ، مسنداً رأسه على ظهر المقعد .
وشعر بالحنول عندما سرى إليه الدفء من يد أبيه . ولجأة بدت هذه اليد
ترتعش ، وعجب أوليفيه لذلك وقال بصوت ضاحك يثقله النعاس :

— أوه ، إن يدك ترتعش يا أبى !

فسحب الأب يده .

ولم تكف رأس أوليفيه الصغيرة عن التفكير وقال بعد برهة :

— هل أنت أيضاً متعب يا أبى ؟

— نعم يا صغيرى .

وعاد الابن يقول بصوته المليء بالعاطفة :

— لا يجب أن تتعب نفسك إلى هذا الحد يا أبى .

وجذب جانان رأس ابنه نحوه ، وأسندها على صدره وهو يغتم :

— يا صغيرى المسكين !

ولكن أفكار أوليفيه كانت قد اتخذت لها اتجاهها آخر . ودقت

ساعة البرج ثمانى دقائق فتخلص الولد من أبيه وهو يقول :

— أنا ذاهب لأقرأ .

فقد كان يسمح لأوليفيه — أيام الخيس — بالقراءة لمدة ساعة

بعد العشاء حتى يحين موعد النوم . كان ذلك منتهى السعادة بالنسبة إليه

ولم يكن فى الدنيا شئ يستطيع أن يجعله يضحي بدقيقة من ذلك الوقت .

وتركة أبوه يذهب . وأخذ جانان يذرع الشرفة المظلمة جيئة

وذهاباً ثم دخل المنزل هو الآخر .

وفى الغرفة كانت الأم وأولادها مجتمعين حول المصباح :

انطوانيت تضع شريطاً لرداء بدون أن تكف لحظة عن الكلام

أو الغناء بالرغم من تضايق أوليفيه الذى جلس أمام كتابه وقد قطب

حاجبيه مكباً على المائدة وقد وضع يديه على أذنيه لكيلا يسمع شيئاً .

وكانت مدام جانان ترفو بعض الجوارب وهي تتحدث إلى الخادم العجوز التي وقفت إلى جانبها تقدم حساباً عن مصروفات ذلك اليوم . وانتهزت تلك الفرصة لتتحدث قليلا . وكان دائماً لديها حكايات مسلية تحكيها بطريقة مثيرة تجعلهم جميعا ينفجرون ضاحكين وتجعل انطوانييت تحاول أن تقلدها .

نظر إليهم السيد جانان صامتا ولم يلتفت إليه أحد . وقف حائرا فقرة ما ثم جلس وأخذ كتاباً فتحه كيفما اتفق ثم أغلقه وقام من مكانه . إذ لم يكن في إمكانه البقاء أكثر من ذلك ، ثم أشعل شمعة وقال :
— أسعدتم مساء .

ثم اقترب من الصغار وعانقهم بحرارة . وردوا على تحيته بدون اتباه ودون النظر إليه . أما انطوانييت فقد كانت منهمكة في أشغالها ، وكان أوليفيه مأخوذاً بكتابه ولم يبعد يديه عن أذنيه ولكنه رد على التحية بنمغمة وهو يواصل القراءة . ولم يكن يهتم أوليفيه عندما ينهمك في القراءة أن يقع أحد أفراد أسرته في نار الموقد . خرج السيد جانان من الغرفة وأخذ يتلصقاً في الغرفة المجاورة . وجاءت زوجته بعد قليل لتضع بعض البياضات في أحد الدواليب ، إذ كانت الخادم قد انصرفت ، وتظاهرت بأنها لم تره . وتردد هو ثم اقترب منها وقال :

— أرجو المَعذرة ، لقد تحدثت إليك بخشونة منذ قليل .

وودت لوقالت له :

— لست متحاملة عليك يا زوجي المسكين ، ولكن ماذا بك ؟
هل لي إذن ماذا يجعلك تتألم ؟

ولكنها قالت له وهي جد سعيدة . إذ وجدت الفرصة لتشار لنفسها :

— دعني وشأني ! إنك فظ غليظ معي ، إنك تعاملني بطريقة
لا تعامل بها خادمة ، وهذه اللهجة ظلت تعدد له شكواها بإسهاب
عنيف مليء بالحق .

وقابل كل ذلك بحركة فيها شيء من الضيق ، وابتسم ابتسامة مريرة
ثم انصرف .

إن أحداً لم يسمع صوت الرصاصة . ولكن الجيران تذكروا في اليوم التالي عندما علموا بما حدث أنهم كانوا قد سمعوا — عند منتصف الليل تقريباً — وفي صمت الطريق ، صوتاً جافاً كأنه ضربة سوط ، فلم يهتموا به . ولم يلبث هدوء الليل أن عاد فغمر المدينة وطوى في ثناياه الأحياء والموتى .

واستيقظت إمدام جانان بعد ساعة أو ساعتين ، ولم تجد زوجها إلى جانبها ، قامت قلقة فجابت كل الغرف ، ثم نزلت إلى الدور السفلى ، ثم ذهبت إلى مكاتب المصرف التي كانت في جزء من مبنى مجاور للمنزل . وهناك في غرفة السيد جانان وجدت زوجها على الأريكة منهاراً على مكتبه وسط دماثة التي كانت ما تزال تقطر على الأرض ، وصرخت صرخة عالية ، وسقطت من يدها الشمعة التي كانت تحملها وأغشى عليها . وسمعها من كان في المنزل فهرع الخدم ليحملوها ويعنوا بها ، ثم حملوا جثة السيد جانان ووضعوها على فراش . كانت غرفة الصغار مغلقة وانطوانيت نائمة . وسمع أوليفيه أصواتاً ووقع أقدام : كان يودلو يعرف ما الخبر ولكنه خشى أن يوقظ أخته فعاود النوم .

وفي صباح اليوم التالي كان الخبر قد انتشر في المدينة قبل أن يعرف الأولاد أي شيء ، وأطلعتهم الخادم العجوز على الخبر وهي تنتحب ، كانت

أهمهم خارجة عن وعيها لا تستطيع التفكير في أى شيء ، وكانت معها في حالة تبعث على القلق . ووجد الصغير ان نفسيهما وحيدان أمام الموت وقد تغلب رعبهما في اللحظات الأولى على ألمهما . وبعد ذلك لم تترك لهما الفرصه للبكاء بعيداً عن الناس إذ بدأت منذ الصباح الإجراءات القضائية القاسية . كانت أنانية الصبا تدفع انطوانيت — وقد اعتكفت بغيرتها — إلى أن تبذل قصارى جهدها لكيلا تفكر في شيء آخر غير صديقها . كانت تلك هي وسيلتها الوحيدة التي تساعد على طرد الألم الفظيع الذي كان يخنقها وانتظرت قدومه من ساعة لأخرى . ولم يحدث أن تلتطف معها صديقها مرة مثلاً حدث في المرة الأخيرة التي رآته فيها . لم تكن تشك في أن يسرع لمشاركتها حزنها ، ولكن أحداً لم يأت . ولم يكتب إليها أحد كلمة واحدة ، لا دليل على أى تعاطف . . بل على العكس فبمجرد أن أذيع خبر الانتحار أسرع كثير من الذين أودعوا أموالهم مصرف جانان إلى منزله واخترقوا الباب ثائرين على الزوجة والأولاد في وحشية لا ترحم .

وفي خلال بضعة أيام تكدست المصائب عليهم : فقد إنسان عزيز ، إضاعة الثروة كلها . ضاع مركز العائلة وتقدير الناس لهم ، وتخلي عنهم الأصدقاء ، انهيار تام ، لم يعد هناك ما يقيم أودهم .

كانت لهم نفوس طاهرة أية جعلتهم يقاسون من فضيحة هم منها براء .

أما أنطوانيت فقد قاست أكثر من أمها وأخيها لأنها كانت أبعدهم عن المصيبة . وبالرغم مما أصاب مدام جانان وأوليفيه فلم تكن دنيا الامسى هذه بغريبة عليهم كانوا متشائمين بطبيعتهم ، ولذلك لم تفاجئهم المصيبة بقدر ما آلمتهم .

وما أكثر ما كانوا يفكرون في الموت هرباً من الحياة ، وتسלט عليهم حينئذ ذلك التفكير أكثر من أى وقت مضى ، فأخذوا يتمنون الموت . إنه خضوع مؤسف من غير شك ، ومع ذلك فهو أقل هولاً من ثورة أنطوانيت تلك الفتاة الصغيرة الممتلئة ثقة ، السعيدة التى تحب الحياة ، وقد وجدت نفسها فجأة مقهورة أمام يأس لا حد له ، وأمام هذا الموت المفزع .

وبجأة اكتشفت أنطوانيت بشاعة الحياة . تفتحت عيناها فرأت الحياة على حقيقتها ، وعرفت أباه وأما وأخاها . وبينما أوليفيه وأمه يكيان كانت هى منفردة مع حزنهما ، وأخذت تفكر بعقلها اليائس فى الماضى والحاضر والمستقبل . رأت أن كل شىء قد انتهى بالنسبة إليها لم يعد لها أمل أو سند ، لم يعد لها أحد تعتمد عليه .

وشيعت الجنازة بطريقة مفجعة مخزية : كانت الكنيسة قدر فضت استلام جثة المنتحر . أما الأصدقاء القدامى فقد كانوا من الجبن بحيث تركوا الأرملة وأولادهم يتامى وحدهم . صديقان أو ثلاثة فقط

هم الذين ظهروا لبضع لحظات، وكانت حالة الضجر التي يدون بها أشق على نفوسهم من غياب الآخرين. كأنما كان حضورهم مكرمة يقدمونها. كان صمتهم مثقلاً بالعتاب وبالشفقة المهيبة. ومن جهة أقاربهم فقد كان الأمر أسوأ من ذلك لا لأنهم لم يواسوهم بكلمة واحدة، ولكن لأنهم أخذوا يلقونهم باللوم المرير. وبدأ انتحار صاحب المصرف — الذي لم يستطع أن يطفىء الأحقاد — جريمة لا تقل بشاعة عن جريمة إفلاسه. إن البرجوازية لا تغتفر للذين يقتلون أنفسهم، وتفضيل الموت عن الحياة مهما بلغت من الدناءة يبدو في نظرها أمراً إداً، ولو استطاعت لاستعانت بقسوة القانون على من يبرر انتحاره بقوله :

— ليس هناك شقاء أكبر من العيش بينكم !

ولم يكن أجبنهم أقل تلهفاً على وصم المنتحر بالجبن. وإن ثورتهم لتشتد عند ما يجدون أن المنتحر — علاوة على انتحاره — قد أضر بمصالحهم وحرّمهم من الانتقام لأنفسهم بانسحابه من الحياة. لم يفكروا لحظة واحدة كم قاسى جانان المسكين قبل أن يلجأ إلى الموت. وتمنوا لو تعذب ألف مرة أكثر مما تعذب. ولما وجدوا أنه أفلت منهم اتجهوا بسخطهم نحو ذويه. لم يعترفوا بذلك لأنفسهم لأنهم يعرفون مافيه من ظلم، ومع ذلك فما كانوا يمتنعون عن ظلمهم لأنهم كانوا بحاجة إلى ضحكة.

وكانت مدام جانان — التي لم تعد تصلح إلا للعويل — تستعيد قوتها عند ما يهاجم زوجها أحد . وحينئذ تكتشف مبلغ حبها له .
واتفق الثلاثة الذين كانوا يجهلون ما يحبهم الغد عن مهر الأم وعن كل ما يملكون لكي يسددوا — بقدر ما يستطيعون — ديون الأب .
ثم أصبحوا لا يستطيعون البقاء أكثر من ذلك في المدينة فقرروا الذهاب إلى باريس .

في احدى الامسيات الاخيرة من شهر سبتمبر ، كانت الحقول مخفية وراء الضباب الكثيف الابيض الذى تطل منه على جانبي الطريق — هيا كل الاعشاب المبتلة وكأنها نباتات مائية — في تلك الامسية، أمسية الرحيل ، ذهبوا سويا لوداع مقابر الاسرة . وركع الثلاثة على الحافة الحجرية المحيطة بالقبر الذى لم يمض على ردمه وقت طويل . سالت دموعهم في صمت وأخذ صوت أوليفيه يتحشرج وأخذت مدام جانان تجفف دموعها في يأس . كانت تتعذب وتزيد من شقائها بتريد مستمر للكلمات التى قالتها لزوجها في آخر حديث معه قبل موته . وتذكر أوليفيه حديثه مع أبيه وهما جالسان في شرفة الحديقة ، بينما كانت أنطوانيت تفكر فيما سيحدث لهم بعد ذلك . ولم يكن في قلب واحد منهم ظل من اللوم للشقى الذى أضاعهم جميعاً معه . ولكن أنطوانيت أخذت تفكر :

— آه كم سنقاسى يا أبى العزيز !

وبدأ الضباب يتكاثف والرطوبة تنفذ إليهم . ولكن مدام جانان لم تستطع أن تغادر المكان . وراة أنطوانيت أخاها يرتعش فقالت لأمها :

— أماه ، أنتى أشعر بالبرد .

وقاموا من مكانهم . وقبل أن يغادروا المكان استدارت مدام جانان للمرة الأخيرة نحو القبر لتقول :

— يا صديقى المسكين !

وخرجوا من المقابر والليل يرخى سدوله ، وأنطوانيت ممسكة بيد أخيها الباردة ودخلوا المنزل القديم . كانت تلك آخر لياليهم في العش الذى كانوا ينامون فيه دائماً . حيث انقضت حياتهم وحياة أسرهم — هذه الجدران ، هذا المأوى ، هذا المربع الصغير من الأرض الذى ارتبطت به مسرات العائلة وأحزانها برباط من الشدة بحيث بدت هذه الأشياء كأنها هى أيضاً من أفراد العائلة ، وكأنها جزء من حياتهم لا يستطيع أن يفرق بينها وبينهم إلا الموت .

كانت الحقائق جاهزه . وكان عليهم أن يأخذوا أول قطار فى اليوم التالى قبل أن تفتح الحوانيت المجاورة أبوابها لكي يتجنبوا فضول الناس وتعليقاتهم المريعة . كانوا بحاجة إلى أن يضم بعضهم بعضا ومع ذلك فقد اتجه كل واحد — بطريقة لا إرادية — إلى غرفته حيث مكث مدة طويلة . . ظلوا وقوفاً ، لا يتحركون ولا يفكرون حتى فى خلع القبعات أو المعاطف . وأخذوا يلبسون الجدران وقطع الاثاث وكل ما كانوا على وشك أن يفارقوه ، ويضعون جباههم على زجاج النوافذ ، محاولين أن يحتفظوا فى أنفسهم بتجاوبهم مع الأشياء الحبيبة

إليهم . وأخيراً بذل كل واحد منهم جهده ليقشّل نفسه من انفراده بأفكاره الحزينة واجتمعوا في غرفة مدام جانان — غرفة العائلة ذات القبوة الكبيرة في نهايتها — حيث كانوا فيما مضى يجتمعون كل مساء بعد العشاء ، عندما لا يكون في زيارتهم أحد . . في الماضي . الماضي الذي أصبح يبدو بعيداً بالنسبة إليهم — وظلوا صامتين حول نار الموقد الخافتة . ثم أدوا الصلاة معاً وهم راكعون أمام السرير ، وناموا مبكرين ، فقد كان عليهم أن يستيقظوا قبل الفجر ولكن مضى وقت طويل قبل أن يأتهم النوم .

وكانت مدام جانان طيلة الليل تنظر إلى ساعتها لعل الوقت قد حان . وفي الرابعة صباحاً قامت وأشعلت شمعة . وسمعتها أنطوانيت التي لم تكن قد نامت وقامت هي الأخرى ، أما أوليفيه فقد كان غارقاً في نوم عميق ونظرت إليه مدام جانان بحنان ولم تجرؤ على أيقاظه . وابتعدت على أطراف أصابعها وهي تقول لأنطوانيت :

— يجب ألا تحدثي صوتاً لي هنا الصغير المسكين بآخر لحظاته هنا .

وانتهت الإثنتان من ارتداء ملابسهما ومن تجهيز اللقائف . وحول المنزل كان يخيم صمت الليل البارد الخفيف حيث أغرقت كل الأحياء — الإنسان منها والحيوان — في النوم الدافئ . كانت أسنان أنطوانيت تصطك من البرد وكان جسدها وقلبها قد تجمداً .

ودوى صوت الباب الخارجى فى الهواء المتجمد . كانت الخادم العجوز — ومعها مفتاح المنزل — قد جاءت لتقوم بخدمة العائلة للبرة الأخيرة . كانت قصيرة بدينة ، تضايقها بداتها وتجعلها تنفس بصعوبة ، ومع ذلك فهى تبدو جد خفيفة فى حركتها بالنسبة لسنها . وتقدمت بوجه تبدو عليه الطيبة — وحوله شال من الصوف — كان أنفها محمراً من البرد وعيناها تترقرقان بالدموع . وأسفت إذ رأت سيدتها قد قامت من نومها دون أن تنتظرها وأشعلت الفرن فى المطبخ — واستيقظ أوليفيه أثناء دخولها . كانت أول حركة بدرت منه أن عاد فأغلق عينيه ، ولف نفسه فى الأغشية ليواصل النوم . وجاءت انطوانيت لتضع يدها برفق على كتف أخيها وتناديه بصوت خافت :

— أوليفيه — حان الوقت يا صغيرى :

وتهد وفتح عينيه فرأى وجه أخته قريباً من وجهه . وابتسمت له ابتسامة حزينة ومسحت يدها على جبينه وقالت له ثانية :

— هيا بنا .

وقام أوليفيه .

وخرجوا من المنزل كاللصوص دون أن يحدثوا ضجة . كان كل واحد منهم يحمل لفائف بين يديه وتقدمتهم الخادم العجوز تدفع حقائبهم أمامها على عربة يد صغيرة . تركوا كل شئ تقريباً ، لم يأخذوا معهم إلا ما تحمله أجسادهم وبعض الملابس الأخرى ، على أن تشحن

لهم في المستقبل بعض الأشياء التذكارية البسيطة ، كبعض الكتب والصور ، وتلك الساعة القديمة التي اختلطت دقاتها بدقات قلوبهم . كان الهواء لازعاً في برودته . ولم يكن أحد قد استيقظ بعد في المدينة . كانت النوافذ مغلقة والشوارع مقفرة . وساروا صامتين ما عدا الخادمة التي أخذت تتحدث وحدها .

وحاولت مدام جانان أن تثبت في نفسها — للمرة الأخيرة — معالم المدينة التي تذكرها بكل ماضيها .

وفي المحطة لم تستطع مدام جانان أن تتغلب على عزة نفسها ، فاشترت تذاكر السفر بالدرجة الثانية بالرغم من أنها قد قررت الاكتفاء بالدرجة الثالثة ، ولكنها لم تجرؤ على قبول هذا الاذلال أمام اثنين أو ثلاثة من موظفي السكك الحديدية الذين يعرفونها . وتسالت بسرعة إلى مقصورة خالية حبست نفسها فيها مع الصغار . كانوا يرتعدون وهم خلف الستائر خشية ظهور أحد المعارف ولكن أحداً لم يظهر . كانت المدينة قد بدأت تستيقظ ساعة رحيلهم ، وكان القطار خالياً إلا من ثلاثة أو أربعة من القرويين ، ومن بعض الثيران التي أطلقت برؤوسها من فوق حاجز العربة وأخذت تخور خوياً حزينا ، وبعد انتظار طويل صفر القطار صفيراً متواصلاً ثم اندفع في الضباب . وأزاح المهاجرون الثلاثة الستائر ، والتصقت وجوههم بزجاج النوافذ ورأوا للمرة الأخيرة مدينتهم الصغيرة التي كاد برجها العتيق ذو الطراز القوطي

ألا يرى من خلال غلالات الضباب ، كانت الربوة مغطاة بالقش .
والمراعى يكسوها الجليد الأبيض يتصاعد منه الدخان . وكأنما كان
ذلك المنظر حلياً بعيداً لا وجود له . واختفى المنظر عندما انحنى القطار ليخترق
جبلًا . واطمأنوا إلى أن أحداً لم يعد راحم ، وهنا لم يتألم الكواشعورهم فوضعت
مدام جانان منديلها على فمها وأجهشت في البكاء ، وارتمى أوليفيه على
أمه تاركا رأسه على ركبتيها وأخذ يغمر يديها بالعبرات والقبل . أما
أنطوانيت فقد أخذت تبكي في صمت وهي جالسة في الركن الآخر
من المقصورة متجهة نحو النافذة . إن بكاء الثلاثة لم يكن لنفس السبب .
فمدام جانان وأوليفيه لم يفكرا إلا فيما تركا وراءهما . أما أنطوانيت
فقد كان كل تفكيرها تقريرا متجها نحو ما سيحدث لهم بعد ذلك .
كانت تلوم نفسها على هذا التفكير وتتمنى لو استطاعت ألا تخرج عن
نطاق الذكريات . وكانت محقة في النظر إلى المستقبل إذ كانت أكثر
إمعانا في الأمور من أمها وأخيها اللذين أخذوا يعقدان الآمال البعيدة
على باريس . ولم يكن يدور بخلد أنطوانيت نفسها شيء مما ينتظرهم
هنالك ، في باريس ، التي لم يزوروها من قبل ، وحيث كان لمدام جانان أخت
متزوجة من أحد القضاة الأثرياء تعقد عليها كثيرا من الأمل . وعلى
كل حال فقد كانت مقتنعة بأن أولادها لن يجدوا صعوبة كبيرة في أن
يكسبوا عيشهم بطريقة شريفة بما تلقوا من تعليم ، وبما لديهم من
استعداد فطري . وكانت — ككل الأمهات — مخطئة في تقدير
إمكانات أولادها .

وشعروا باكتاب شديد بمجرد وصولهم باريس . ففي المحطة
أهلوا من تراحم الناس أمام الباب الخارجى للمحطة . كانت السماء
تمطر ، ولم يستطيعوا الحصول على عربة . فكان عليهم أن يسيروا
طويلا وهم يحملون لفائفهم الثقيلة التى أنهكت قواهم واضطرتهم إلى
التوقف فى منتصف الطريق ، معرضين أنفسهم لأخطار العربات ولما
تقدفهم به من طين . إن حوزياً واحداً لم يرد على نداءاتهم . وأخيراً
ينبهم يضعون لفائفهم على العربة سقطت منهم فى الطين لفنة من
الأغطية . واستغل جهلهم كل من حال المحطة الذى نقل حقيبتهم ،
والحوضى ، وتقاضيا أجراً مضاعفاً . وطلبت مدام جانان إلى الحوضى
أن يذهب بهم إلى فندق من تلك الفنادق المرتفعة الأجور على الرغم من
ردامتها ، التى تعود القرويون أن يقصدها متقاضين عن عيوبها المجرد
أن أحد أجدادهم كان يقصدها منذ ثلاثين سنة . واستغلوا أبشع استغلال .
قيل لهم إن الفندق ممتلئ فحشدوا جميعاً فى غرفة ضيقة مع أنهم اضطروا
إلى دفع أجر غرف ثلاث . ورغبة فى الاقتصاد تجنبوا الأكل على
مائدة الفندق ، فطلبوا طعاماً متواضعاً كلفهم ثمناً لا يقل عن ثمن غذاء
الفندق ولكنه أجاعهم . وهكذا تلاشت آمالهم منذ اللحظات الأولى
لوصولهم . وفى أول ليلة قضاها فى الفندق لم يستطيعوا النوم فى تلك
الغرفة الرديئة التهوية التى حشدوا فيها . شعروا بالبرد ثم شعروا بالحر

وكادوا يختنقون. كانوا يقفزون لوقع أى خطوات فى الممر ، أو لصوت الأبواب وهى تغلق ، أو الأجراس الكهربائية . وطار صوابهم من أصوات العربات وضجيج سيارات النقل الذى لا ينقطع . وشعروا بالهول إزاء هذه المدينة الضخمة حيث ألغوا بأنفسهم فابتلعتهم .

وفى اليوم التالى أسرع مدام جانان إلى منزل أختها فى شارع «هوسمان» حيث كانت تسكن شقة فاخرة . كانت تأمل — وإن لم تصرح بذلك — فى أن يعرض عليها السكن فى هذا المنزل حتى تزول الضائقة . وكانت المقابلة الأولى كافية لتشيت أملها ، فقد كان أفراد أسرة « بوايه دى لورم » ثأرين لافلاس قريبهم ، خصوصاً الزوجة التى كانت تخشى أن يجلب ذلك لهم العار ويضر بمستقبل زوجها . وكانت ترى فى ارتباط الأسرة البائسة بهم أمراً مشيناً يزيد من الأضرار بسمعتهم — أما القاضى فكان تفكيره بماثلاً لتفكير زوجته . ولكنه كان على شئ من الطيبة وربما كان على استعداد للمساعدة لولا تدخل زوجته ؛ وإن كان فى قرارة نفسه مرتاحاً لموقفها . واستقبلت مدام « بوايه دى لورم » أختها ببرود شديد تأثرت له مدام جانان ولكنها تغلبت على كبرياتها وحدثتهم — بطريقة غير مباشرة — عن الشدائد التى تحيط بها وعمما كانت تنظره منهم . ولكنهم بدوا كأن لم يسمعوا شيئاً . حتى العشاء ، لم يطلبوا منهم أن ينتظروا لتناوله واكتفوا ندعوتهم رسمياً لتناول العشاء فى نهاية الأسبوع . ثم أن هذه الدعوة لم تأت عن طريق مدام بوايت ولكن عن طريق القاضى الذى كان

هو نفسه قد أخرج استقبال زوجته لهم محاولا أن يخفف من حدة الموقف. فتظاهر بالطيبة نحو مدام جانان وأولادها الذين شعروا بأنه لم يكن صريحا كل الصراحة بل أنانيا شديدة الأنانية — وعاد أفراد الأسرة البائسة إلى الفندق . ولم يجرؤوا على تبادل مشاعرهم نحو هذه الزيارة الأولى .

وقضوا الأيام التالية يتجولون في باريس بحثا عن مسكن وانهمكهم صعود الأدوار المرتفعة ، وتقززت نفوسهم لرؤية تلك المساكن تنكدس فيها الأجساد ذات السلام القدرة والغرف المظلمة التي بدت كثيفة بالنسبة لمنزلهم الكبير في الريف . وأخذوا يضيقون بهذه الحياة شيئا فشيئا . وكان تعجبهم الشديد لكل ما يرونه في الشوارع والحوازيات والمطاعم هو دائما سببا في استغفال الناس لهم . ولذا كان ثمن كل ما يطلبون يرتفع فجأة ، كأنما كان لديهم القدرة على تغيير كل ما يلبسون إلى ذهب ، إلى ذهب يدفعون ثمنه . وكانوا على درجة هائلة من سوء التصرف عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم .

وبالرغم من أن مدام جانان لم يعد لها أمل كبير في أختها فقد كانت لا تزال تبني آمالا على دعوة العشاء التي كانوا يستعدون لها بقلوب واجفة ، ولكنهم قوبلوا فيها كدعويين لا كأقارب . ومع ذلك فإن أصحاب الدعوة لم يكلفوا أنفسهم سوى تكلفهم في الاستقبال . ورأى أوليفيه وأخته أولاد خالتهما ، كانا في نفس السن تقريبا

ولكن لقاءهما لم يكن أحسن من لقاء أيهما وأمهما . كانت الفتاة الصغيرة الأنيقة المعتنية بظهرها تتحدث إليهم بتدلل وترفع مذهب وطرق مصطنعة مزوقة جعلتهم في حيرة . وكان الابن الصغير في شدة الضيق لاضطراره إلى العشاء مع أقاربه الفقراء وبدأ مشمئزاً طول الوقت . أما مدام بوايت فبدت في جلستها مستقيمة لا تتحرك . وبدت — حتى وهي تقدم صحاف الطعام — كأنها تعطي درسا لاختها . وأخذ زوجها يتحدث عن أشياء تافهة ليتجنب الأحاديث الجدية . ولم يخرج الحديث الفاتر عن نطاق الأكل خوفاً من الانسياق إلى أى موضوع آخر خاص وخطير . وجاهدت مدام جانان حتى استطاعت أن تجذب الحديث نحو الموضوع الذى يشغل بالها ، ولكن مدام بوايت دى لورم اسكتها فجأة بكلمة عابرة فلم تعد مدام جانان تجرؤ على معاودة الحديث فى هذا الموضوع .

وانتهى العشاء فدفعت مدام جانان ابنتها إلى أن تعزف على البيانو لتظهر موهبتها . وكانت الفتاة متضايقه فجاء عزفها رديئاً . وبدأ الضيق على أفراد أسرة بوايت وانتظروا أن تنتهى انطوانيت من العزف ونظرت مدام بوايه إلى ابنتها هى وحركت شفتيها بطريقة ساخرة . ولما استمرت الموسيقى وقتاً طويلاً عادت مدام بوايت تتحدث مع مدام جانان فى أشياء ليست ذات أهمية . وأخيراً فقدت انطوانيت السيطرة على القطعة الموسيقية عندما لاحظت إنها — فى أحد المقاطع — عادت تعزف القطعة من أولها بدلاً من اكملها ، ووجدت إنها لن

تستطيع التقدم أكثر من ذلك فأوقفت العزف بعد أن ختمته بلحنين
غير صحيحين ولحن ثالث خاطئ. وقال لها السيد بوايت :
— أحسنت .

وطلب القهوة .

وقالت مدام بوايت أن ابنتها كانت تأخذ دروساً عند بوجنو .
فقال : الآنسة التي تأخذ دروساً عند بوايه ، :
— راعم جداً يا صغيرتى .

ثم سألت أين درست انطوانيت ؟

وأخذ الحديث يفتّر ، فقد استنفد كل ما يمكن أن يقال عن تحف
الصالون وعن ملابس مدام بوايت وابنتها . وأخذت مدام جانان
تردد في نفسها :

— حان الوقت للكلام ، يجب أن أنكلم . . .

وانقبضت أساريرها ، فبينما هى تبذل مجهوداً كبيراً وتوشك أن
تتكلم إذا بدمام بوايت تفهمها عرضاً ، وبلهجة لا تمت إلى الاعتذار
بصلة ، أنهم يأسفون لاضطرارهم إلى مغادرة المنزل عند منتصف الساعة
العاشرة تقريباً تلبية لدعوة لم يستطيعوا تأجيلها . وشعر أفراد أسرة
جانان بالاهانة فقاموا على الفور لمغادروا المكان وتظاهروا أهل المنزل
بأنهم يريدون استبقائهم ولكن — بعد ربع ساعة — سمع جرس

الباب وأعلن الخادم قدوم بعض أصدقاء أسرة بوايت من الجيران الذين يقطنون في الطابق الأسفل . وتبادل السيد بوايت وزوجته النظرات وهمسا إلى الخدم همسات سريعة . ثم تتم بوايت بعذر ما وهو يدخل أسرة جانان إلى غرفة مجاورة (كان يريد أن يخفى تماما عن أصدقائه وجود تلك العائلة التي تسمى إلى سمعته ، وأن يخفى وجودها عنده بالذات) . وترك أفراد أسرة جانان في الغرفة دون موقديدهم كان الأولاد في ثورة نفسية عنيفة لهذه الإهانات ، ففرقت الدموع في عيني انطوانيت ، وأرادت أن تغادر المنزل . فقاومت أمها تلك الرغبة بادية الأمر . ثم لما طال الانتظار قبلت الرحيل ، فخرجوا ولحق بهم بوايت في المدخل بعد أن أخطره الخادم برحيلهم واعتذر لهم ببعض عبارات تافهة متظاهراً بالامسآك بهم ، ولكنهم رأوا أنه كان يتعجل رحيلهم . وساعدهم في ارتداء معاطفهم وشيعهم إلى الباب بابتسامات وتحيات وكلمات رقيقة قالها بصوت خافت ثم أخرجهم — وعند ما عادوا إلى الفندق انفجر الأولاد يكون من شدة غيظهم وأخذت انطوانيت تضرب الأرض برجليها وأقسمت ألا تزور هؤلاء الناس بعد ذلك أبداً . وانتقلت مدام جانان إلى شقة في الدور الرابع لمنزل يجاور حديقة النباتات . كانت غرف تلك الشقة تطل على حوش مظلم ذي جدران مشققة . أما غرفة المائدة وغرفة الاستقبال — وكانت مدام جانان حريصة على أن يكون لها غرفة استقبال — فتطلان على شارع مزدحم يمر فيه — طيلة اليوم — مركبات الترام البخارية

وعربات نقل الموتى ، فى صف طويل ينتهى فى مقبرة «ايفرى» ؛ ويظل يتسكع فيه بين المقاعد ويتشاجر بأصوات عالية ، بعض الإيطاليين مع ثلة من الأولاد . ولم يكن فى استطاعة أسرة جانان ترك النوافذ مفتوحة بسبب هذه الضوضاء . وفى المساء عند العودة ، كان عليهم أن يشقوا طريقهم بين الأمواج المتلاطمة من الجماهير المتسابقة الذين تفوح منهم رائحة كريهة . وكان عليهم أن يعبروا الشوارع المزدحمة ذات الأرضية الموحلة وأن يمشوا بأحد حوائط الخمر القذرة الموجودة بالدور الأرضى من المنزل المجاور ، والتى يقف على بابها عدد من الفتيات البدينات ذوات الوجوه المنتفخة والشعر الأصفر وقد كسون وجوههن بطبقات من المساحيق المختلفة وأخذن يرمقن الناس بنظرات وقحة .

كان المال القليل الذى تملكه الأسرة يذهب سريعاً . وأخذوا يراقبون — كل مساء وهم ينحسرون — الثغرة التى بدأت تتسع لتبتلع مالهم . حاولوا أن يحرموا أنفسهم فلم ينجحوا فى ذلك ، أنهم فى حاجة إلى سنوات من التجارب ليتعلموا فن الإدخار ، خصوصاً وأنهم لم يمارسوه منذ الصغر . إن الذين لم يتعودوا التدبير بطبيعتهم يضربون أوقاتهم إذا حاولوا ذلك . فبمجرد أن تلوح فرصة جديدة للاتفاق تراهم يستسلمون لها ويؤجلون التوفير مرة تالية . ثم عندما يحدث ويربحون أو يعتقدون أنهم ربحوا أقل شيء ممكن يسرعون باستخدام فى ذلك مصروفات يتجاوز مجموعها ذلك الربح بعشرات المرات .

وفي خلال بضعة أسابيع فضبت موارد الأسرة . واضطرت مدام جانان إلى التنازل عن كل ما تبقى لها من كبرياء وذهبت بغير علم أولادها — تطلب مساعدة السيد بوايت . وعملت بحيث تلقاه وحده في مكتبه وتوسلت إليه أن يمدها بمبلغ بسيط في انتظار أن يجدوا عملاً يعيشون منه . كان بوايت ضعيفاً وإنساناً إلى حد ما ، فوافق بعد أن حاول أرجاء الإجابة إلى وقت آخر، ففي لحظة تأثر لم يملك نفسه خلالها قدم لها مائتي فرنك . ومع ذلك فسرعان ما ندم على ذلك خصوصاً عندما اقتنع بخطئه أمام زوجته التي غضبت أشد الغضب لضعف زوجها وللمناورات التي تعتبر أن مدام جانان تقوم بها .

وأضاع أفراد أسرة جانان أيامهم يجوبون باريس بحثاً عن عمل . ولم تستطع مدام جانان بأفكارها التي ورثتها عن بورجوازية الريف الغنية أن تقبل أعمالاً — لها أو لأولادها — غير تلك الأعمال التي يسمونها أعمالاً حرة . ربما كان ذلك لأن الإنسان قد يموت فيها جوعاً ولم تكن حتى لتقبل أن تسمح لابنتها بالعمل كمرية لاحدى الأسر . ولم تكن هناك إلا الأعمال الرسمية في خدمة الدولة ، التي لا تبدو لها مخلة بالشرف . كان عليهم أن يبحثوا عن وسيلة تمكن أوليفيه من إنهاء دراسته ليصبح مدرساً . أما أنطوانيت فقد كانت أمها تود إلحاقها بأحد معاهد التعليم لتعطى فيه دروساً ، أو المعهد العالى للموسيقى تواصل فيه الدراسة حتى تحصل منه على إحدى جوائز البيانو .

أما المعاهد التي لجأت إليها أنطوانيت فقد وجدت أمها مكتفية بمدرسيها الذين كانوا يحملون مؤهلات لا يمكن أن يقارن بها مؤهل أنطوانيت البسيط وهو كفاءة التعليم . أما عن الموسيقى فكان عليهم أن يعترفوا بأن قدرة أنطوانيت فيها تعتبر عادية إذا قيس بمواهب آخرين لم يكادوا يتمكنون حتى من الظهور . واكتشفت الأسرة تلك المعركة الرهيبة من أجل الحياة . فإن مدينة باريس تستهلك من المواهب الكبيرة والصغيرة استهلاكاً جنونياً حتى ضاق بها الأمر وأمسك لا تدري ماذا تفعل بكل هذه المواهب .

وشعر الأخوان بشيء من اليأس وبالغا في عدم الثقة بمقدرتهما واعتقدا أنهما ليسا على قيمة كبيرة ، وتحمسا في إثبات ذلك لنفسيهما ولأمه . أما أوليفيه الذى لم يجد مشقة فى أن يفوز بنصيب الأسد بين زملائه عند ما كان فى مدرسته بالريف فقد حطمت تلك التجارب وبدا كما لو أنه فقد كل ما يملك من مواهب . وألحق بالليسه وحصل على المجانية . ولكن حدث فى بادىء عهده بالمدرسة أن جاء ترتيبه متأخراً للدرجة أفقدته تلك المجانية . لقد ظن نفسه أبله تماماً ، وشعر فى الوقت نفسه بالاشمئزاز نحو باريس ونحو هذه المخلوقات المتزاحمة المتلاحقة ، ونحو نسق زملائه الذى لا يطاق وأحاديثهم الدنيئة وحيوانية البعض ممن لا يتورعون عن أن يتقدموا إليه بعروض بشعة . ولم يكن حتى ليقوى على أن يواجههم بمقدار احتقاره لهم . وكان يشعر بنفسه ذليلاً لمجرد التفكير فى مذلاتهم . وأخذ يلجأ مع أمه وأخته إلى الصلوات الحارة التى كانوا يؤدونها معاً كل مساء ، وذلك بعد أن ينصرم يوم جديد مليء باليأس والمهانات . وكانت تلك المهانات وصمة لأولئك الأشخاص ذوى القلوب البريئة لا يجروون على التحدث عنها فيما بينهم . ولكن إيمان أوليفيه بدأ يتزعزع شيئاً فشيئاً عند ما احتك بروح الكفر المنتشرة فى باريس . كان يحدث له ذلك دون أن يشعر به ، كما يحدث لطبقة الجير الحديث أن تتساقط من على الجدران عند ما تنزل عليها الأمطار . كان لا يزال مؤمناً ولكن حينما اتجه بنظره كان يجد فكرة الألوهية تحتضر .

أما أمه وأخته فأخذتا تواصلان مساعيهما الفاشلة . وعادت مدام جانان لمقابلة أسرة بوايت التي أرادت التخلص منها ، ومن أولادها فيئات لها ولأبنتها محملا . عرضوا على الآم أن تعمل « قارئة » لسيدة عجوز تقضى الشتاء في جنوب فرنسا . أما أنطوانيت فوجدوا لها وظيفة مدرسة خاصة لأسرة من غرب فرنسا تقضى العام كله في الريف . وبالرغم من أن شروط العمل كانت لا بأس بها فقد رفضته مدام جانان ولم يكن ذلك لشعورها بالذلة من خدمتها للآخرين فحسب ولكن لأنها لم تشأ أن تعرض أبنتها لهذا الهوان لاسيما أن أنطوانيت ستكون بعيدة عنها . ومهما تبلغ بهم التعاسة فلن يفترقوا ، إذ أن هذه التعاسة نفسها هي التي جعلتهم يتمسكون بالبقاء معاً . وحملت لهم مدام بوايت ذلك على محمل سوء . وقالت أنه إذا لم يكن لدى الإنسان الإمكانيات الكافية فعليه ألا يتصنع الكبرياء . ولم تماالك مدام جانان شعورها فوصمت شقيقتها بقسوة القلب فتفوهت مدام بوايه ببعض العبارات الجارحة عن الإفلاس وعن المال الذي تدين به مدام جانان . افرقا فراقا لا لقاء بعده أبداً ، وانقطعت العلاقات تماما بينهما . وأصبحت مدام جانان وليس لها إلا هم واحد ، وهو أن ترد لأسرة بوايت المال الذي اقترضته منهم ولكن ذلك لم يكن في استطاعتها .

استمرت المحاولات بدون جدوى .. وذهبت مدام جانان لمقابلة نائب منطقها البرلماني وشيخها ، وكان جانان قد أدى لهما كثيرا من الخدمات ، ولكنها قوبلت في كل مكان بالانانية ونكران الجليل ،

أن نائب المنطقة لم يعتن حتى بالرد على خطاباتنا وعندما جاءت تطرق بابهُ أرسل إليها من يبلغها عدم وجوده . أما عضو الشيوخ فقد حدثها حديثاً فيه غلظة مظهرأ أسفه لمركزها الذى عزته إلى جانان الحقير ولامه على انتحاره لوما عنيفاً . ودافعت مدام جانان عن زوجها - فأردف الشيخ قائلاً أنه يعرف جيداً أن جانان لم يتصرف عن قلة شرف ولكن عن غباء ، وأنه كان إنساناً ساذجاً وشبهه بخنفس حقير ، لا يريد أن يتغذ إلا ما يدور برأسه ، دون استشارة أحد ويأبى دون استماع إلى أية نصيحة . ولو كانت المصيبة حلت به وحده لكان ذلك خيراً ولما كان لاحد أن يقول شيئاً ، أما أن يلتقى بزوجه وأولاده إلى البؤس يزرعهم فيه ويتركهم يتصرفون حسبما يستطيعون ، ناهيك عما أحدث من أضرار بالغة أخرى ، فذلك أمر تستطيع مدام جانان أن تغفره له إذا كانت قديسة ، أما هو ، عضو مجلس الشيوخ الذى ليس بقديس والذى يكفيه أن يكون رجلاً عاقلاً رزيناً فليس لديه أى مبرر ليغفر له : فإن الشخص الذى يتحرف فى مثل هذه الأحوال إنسان حقير . ظرف واحد يستطيع أن يخفف الجرم بالنسبة لجانان ، وذلك أنه لم يكن مسئولاً تماماً عن الأحداث التى دفعته إلى الانتحار .

وهنا اعتذر عضو الشيوخ لمدام جانان لاتدفاعه فى الحديث

عن زوجها وعزا ذلك إلى عطفه عليها . ثم فتح درج مكتبه وأخرج منه ورقة مالية من ذات الحسين فرنكا وقدمها لها — كما لو كانت صدقة — فرفضتها .

وبحثت عن عمل في مكاتب إحدى المصالح الكبرى وذهبت كل محاولاتها عبثاً وبدون نتيجة . وكلما استجمعت قواها لتحقيق خطوة ما عادت مبشّطة الهمة لدرجة لا تستطيع معها الحركة عدة أيام ، ثم عندما تقرر معاودة الكرة تكون الفرصة قد فاتت . ولم تكن أكثر حظاً عند رجال الكنيسة ، ربما لأنهم لم يجدوا لهم مصلحة في مساعدتها ، أو لأنهم لم يهتموا بأمر أسرة مفلسة اشتهر عائلها بعدوانته لرجال الدين . وكل ما استطاعت مدام جانان أن تحصل عليه بعد جهود كبيرة هو عمل في إحدى مدارس الراهبات كمدرسة لليانوس : عمل غير مجزٍ وذو أجر يثير السخرية . ولكي تزيد دخلها قليلاً أخذت تقوم بنسخ الأوراق مساء كل يوم لأحد المكاتب . كانت تعامل بقسوة وبالرغم من مشاربتها فقد كان خطها وذهولها الذي يجعلها تنسى كلمة أو سطرأ (لانشغالها بأشياء أخرى كثيرة) سبباً في ملاحظات جارحة . وبعد أن تدمى عينيها وبعد أن ينحني ظهرها من كثرة الكتابة حتى منتصف الليل ، ترفض النسخة التي كتبها ، وتعود إلى المنزل مضطربة . كانت تقضى أياماً تتألم فيها دون أن تهتدى إلى حل ما . وكانت منذ زمن طويل تشكو مرضاً بالقلب زادت المحن من

خطورته فأوحى إليها ذلك بإحساسات مخيفة . كانت تعترها أحياناً حالات من الخوف ، وتشعر باختناق كأنها على وشك أن تموت . ولم تعد تغادر منزلها إلا ومعها اسمها وعنوانها ، خشية أن تسقط في الطريق . ماذا يحدث لو اختفت عن الحياة ؟ كانت انطوانيت تعاونها بقدر الإمكان ، مصطنعة الاطمئنان وهي غير مطمئنة . كانت تتوسل إليها أن تحافظ على صحتها وتركها لتعمل بدلا منها . ولكن مدام جانان كانت تعمل بما تبقى لها من كبرياء ، على الأقل حتى لا تلقى ابنتها أبداً تلك المهنات التي كان عليها هي أن تقاسمها .

وحاولت أن ترهق نفسها في العمل وأن تقلل من النفقات ، ولكن على غير طائل ، إذ أن دخلها كان لا يكفي مطالب العيش . فاضطرت أن تبيع بعض الحلى التي تبقت لها . وبما آلمها حقاً أن تبيع تلك الحلى ، وقد كانت أشد ما تكون حاجة إليه ، سرق منها في نفس اليوم الذى حصلت فيه عليه . فقد خطر ببال المسكينة التي كانت دائماً الشرود أن تنتهز الفرصة وتدخل محل « بون مارشيه » — وكان في طريقها — لتشتري هدية صغيرة لانطوانيت بمناسبة عيد ميلادها . كانت ممسكة بحافظة نقودها بيدها حتى لا تضيع منها ، وبمجرعة آلية وضعتها لحظة على المنضدة لتفحص شيئاً ما ، فتفقدت الحافظة فإذا بها اختفت — وكانت تلك آخر لحظة .

وبعد بضعة أيام ، في إحدى الانسيات الأخيرة الخائفة من شهر

أغسطس وكان الضباب الكثيف يسير متاقلا فوق المدينة ، عادت مدام جانان من عملها في مكتب النسخ حيث كان عليها أن تسلم بعض الأوراق المستعجلة . ولما وجدت نفسها قد تأخرت عن موعد العشاء ، أسرعت في مشيتها إلى حد الإرهاق لكيلا يشعر أولادها بالقلق عليها . وعندما وصلت إلى مسكنها بالدور الرابع لم تعد تستطيع أن تتكلم أو تتنفس . لم تكن تلك أول مرة تغدو فيها على مثل هذه الحال ، حتى لقد اعتاد ولداها على رؤية ذلك . وبمجرد وصولها تحاملت على نفسها لتجلس معهما إلى المائدة . وكان أوليفيه وانطوائيت متضايقتين من شدة الحر . لدرجة لم يستطيعا معها تناول الطعام . كان عليهما أن يبذلا مجهودا لا يتلاءم بعض قطع من اللحم وبعض جرعات من الماء الذي لا طعم له وذلك على كره منهما . ورغبة منهما في أن يتركا لأمهما الفرصة لتستعيد قواها كفا عن الحديث ، وما كان عندهما ميل إليه ، وأخذا ينظران ناحية النافذة .

ولحظة اهتزت مدام جانان وتشبثت بالمائدة ونظرت إلى ولديها ثم أصدرت أنينا ، ثم انهارت . واندفع أوليفيه وانطوائيت في الوقت المناسب ليلقاها كل منهما بين ذراعيه فأخذا يصرخان ويستنجدان كالمجانين :

— أماه ، أماه الحبيبة .

ولكن الأم لم تعد تجيب ، فطار صوابهما ، وضمت انطوانيت
أمها بحركة عصبية وهي تقبلها وتناديها . وفتح أوليفيه باب الشقة
وصرخ :

— النجدة !

وصعدت زوجة البواب سلم المنزل قفراً ، وعندما تبينت الأمر
أمرعت لتستغيث بطبيب من الجيران . ولكنه لم يستطع عند وصوله
أن يعمل شيئاً وقرر أن كل شيء قد انتهى . كان الموت — لحسن حظ
مدام جانان — مفاجئاً . (ولكن من يستطيع أن يعرف ما كان
يدور بخلفها — في لحظاتها الأخيرة — وهي ترى نفسها تموت تاركة
ولديها وحيدين للشقاء ! ..)

وتحملا وحدهما شناعة الكارثة ، وبكيا وحدهما ، واشرفا وحدهما
على الترتيبات البشعة التي تتبع الوفاة . كانت زوجة البواب امرأة طيبة
فساعدتهما قليلا وتلقيا من مدرسة الراهبات حيث كانت تعمل أمهما
بعض عبارات فاترة من المواساة .

وغمر اليأس لحظتهما الأولى بشكل لا يوصف . ولم ينقذهما من
اليأس إلا تماديهما فيه مما أدى بأوليفيه إلى حالات تشنجية حقيقية .
وشغلت أنطوانيت عن الام نفسها ولم تعد تفكر إلا في أخيها .
وتغلغل حبها العميق في نفس أوليفيه وانتشله من الحالات النفسية
الخطيرة حيث كاد الألم أن يودى به ، واقترب الصغيران معاً إلى
جانب السرير الذي كانت ترقد أمهما عليه ، تحت ضوء مصباح خافت ، وأخذ
أوليفيه يردد أنه لا بد من الموت ، لا بد من أن يموتا سوياً وأن يموتا
في الحال . وأشار إلى النافذة وشعرت أنطوانيت أيضاً بهذه الرغبة
المنحوسة ولكنها قاومتها فقد كانت تريد الحياة ...

— لماذا ؟

وأجابت أنطوانيت وهي تشير إلى أمها :

— من أجلها . أنها ما تزال معنا . فكر ... بعد كل ما قاست من
أجلنا يجب أن نوفر عليها ألم رؤيتنا نموت نساء . ثم تنهدت بانفعال

وهي تضيف) يجب إلا نستسلم هكذا.. أتى أرفض .. أتى أثور
أخيراً .. أريدك أن تصبح سعيداً في يوم من الأيام .
— محال !

— نعم ستصبح سعيداً . لقد لقينا من المصائب أكثر مما نحتمل ،
ولكن ذلك سيتغير ، يجب أن يتغير ، ستكون نفسك وستصبح
لك أسرة ، ستظفر بالسعادة ، أتى أريد ذلك ، أنا أريده !
— كيف نعيش ؟ لن نستطيع ذلك أبدا .

— سنستطيع ذلك ، ماذا يلزمنا ؟ أن نتمكن من البقاء حتى تكسب
أنت عيشك . أتى أتكفل بهذه المهمة ، وسترى أتى سأتمكن من
ذلك .. آه لو كانت أمى تركنى لأعمل لكنت الآن استطعت ...
— ماذا تريد أن تفعل ؟ لا أريدك أن تأتى أفعالا مشيتة .
وعلى كل حال لن نستطيعي .

— أستطيع .. وليس هناك ما يشين في كسب العيش عن طريق
العمل ما دام شريفاً . أرجوك إلا تقلق يا أوليفيه . سترى أن كل
شيء سيسوى وأنتك ستصبح سعيداً ، فنحن الإثنين سنصبح سعيدين
يا أوليفيه ، وأيضاً أنا ، ستصبح سعيدة بنا ..

وسارا وحدهما وراء نعش أمهما . كانا قد اتفقا فيما بينهما على
إلا يقولوا شيئاً لأسرة بوايه ، إن أفراد هذه الأسرة لم يعد
لهم وجود بالنسبة إليهما فقد اظهروا منتهى القسوة نحو أمهما وكانوا
سبباً من أسباب موتها .

ولما سألتهما زوجة البواب إذا كان لهما أقارب آخرون أجاباها :
— لا أحد .

وصليا أمام القبر المفتوح وقد أمسك كل منهما بيد الآخر .
وتجلدا وفضلا في إصرار وكبرياء ، يائسين ، الوحدة على وجود أقارب
مناققين لا يهتمون بهما . . وعادا مشيا على الأقدام وسط هذا الجمهور
الغريب عن حزنهما ، الغريب عن أفكارهما ، الغريب عن وجودهما
كله . هذا الجمهور الذى لا يربطه بهما إلا اللغة التى يتحدثان بها .
وتأبطت أنطوانيت ذراع أوليفيه أثناء عودتهما .

واستأجرا شقة صغيرة فى الطابق الأخير من المنزل ، مكونة من
حجرتين علويتين ، وحجرة صغيرة ، كان عليهما أن يستعملها كغرفة
للطعام ، ومطبخ لا يزيد حجمه على حجم دولاب مطبخ . كان فى
إمكانهما إيجاد مسكن أفضل من هذا فى حى آخر ، لولا أنهما كانا
يشعران أنهما هنا لا يزالان مع أمهما ، وأظهرت لهما امرأة البواب اهتماما
مبعثه الشفقة . ولكن سرعان ما شغلت عنهما بأعمالها الخاصة .
ولم يعد أحد يهتم بهما . إن أحداً من سكان المنزل لا يعرفهما ،
ولا هما كانا يعرفان من يسكن بجوارهما .

وتوصلت أنطوانيت إلى العمل محل أمها كـ مدرسة للموسيقى بمدرسة
الراهبات ، وبحثت عن دروس أخرى تعطيها إلى جانب عملها . فقد كان
كل هما أن تربي أخاها حتى يستطيع أن يلحق بمدرسة المعلمين .

قررت ذلك وحدها . درست البرامج ، قامت بالاستعلام ، ثم حاولت أن تحصل أيضاً على رأى أوليفيه ولم يكن لأوليفيه رأى قط . كانت هى التى اختارت له ، فإن قبوله بمدرسة المعلمين يضمن له عيشه بقية حياته ويصبح سيد مستقبله . كان يجب أن يصل إلى تلك المدرسة وكان على الاخوين أن يعيشا معها كلفهما ذلك حتى يصل أوليفيه إلى هدفه بعد خمس سنوات أو ست مليته بالقسوة ولكنهما سوف يتغلبان عليها . وقويت هذه الفكرة لدى أنطوانيت حتى اقتنعت تماماً بها . إن حياة البؤس والوحدة التى كانت مقبلة عليها والتى رأتها بوضوح تمر أمامها لن تكون محتملة إلا بفضل حماسها الشديدة الملحة عليها فى أن تنقذ أخاها وأن تجعله يصبح سعيداً حتى ولو لم يعد فى استطاعتها هى أن تصبح سعيدة . هذه الفتاة الصغيرة الساذجة العطوفة التى لم تتجاوز السابعة عشر أو الثامنة عشر من عمرها .. تغيرت تماماً بعد أن اتخذت قرارها الباسل . كانت تشتغل رغبة فى التضحية وتزداد كبرياء أمام الصراع . ولم يكن فى استطاعة أحد أن يتصور مثل هذه المشاعر . هى نفسها كانت آخر من يستطيع تصورهما . فى هذه الفترة الحرجة من حياة المرأة التى تشبه أول أيام الربيع النابضة بالحرارة ، حيث تسيطر عاطفة الحب على الانسان وتغمره — كأنه نهر خفى يصطخب فى بطن الأرض — تلك العاطفة التى تلفه وتغرقه وتركه فى حالة دائمة من الوسوسة ، فى هذه الفترة يأخذ الحب مختلف الأشكال إن من تسيطر عليه قوى الحب لا يطلب إلا أن يهب نفسه ويقدمها قربانا ، ملتصقا

لذلك شتى الإعذار . ولذا فإن المشاعر الغريزية البريئة العميقة كثيراً ما تتطور إلى تضحيات . وهكذا جعل الحب من أنطوانيت فريسة للصدقة .

أما أخوها — ولم يكن شديد العاطفة مثلها — فلم تملكه تلك القوى الدافعة . وعلى أى حال فقد كانت التضحية من أجله هو ، ولم يكن هو الذى يقوم بالتضحية — وهذا أمر أيسر وأكثر لذة بالنسبة لمن يجب . بل على العكس من ذلك كان أوليفيه يشعر بتأنيب الضمير عندما يرى أخته وقد أضناها التعب، كان يصرح لها بذلك فترد عليه بقولها :

— آه يا صغيرى المسكين ، ألا ترى أن هذا هو الذى يجعلنى أعيش ؟ وهل هناك دافع لى غير ذلك التعب الذى أبذله من أجلك ؟ كان يفهم ذلك جيداً . ولو كان محل أنطوانيت لحرص أيضاً على هذا التعب المحبب إلى النفس .. أما أن يكون هو سبب ذلك التعب .. إن كبريائه وقلبه ليتألمان لذلك . وياله من عبء مضمن بالنسبة إلى إنسان ضعيف مثله أن يتحمل المسؤولية التى أثقل بها كاهله . كان لزاماً عليه أن ينتج ما دامت أخته قد قامت بجباتها على هذا الأمل . لم يكن أبداً ليستطيع أن يتحمل مثل هذه الفكرة التى بدلا من أن تضاعف قواه ، كانت تضنيه فى بعض الأحيان . ومع ذلك فقد أرغمته تلك الفكرة على أن يقاوم ، على أن يعمل ، وعلى أن يعيش ، وهذا

ما لم يكن في قدرته لو لم يجد نفسه مضطرا إليه . كان لديه استعدادا للهزيمة — وربما للانتحار — بل ربما انتهى إلى ذلك لو لم تكن أخته قد أرادت له الطموح والسعادة . وكان يؤله أن يخضع لغير طبيعته ومع ذلك فقد كان هو السبيل الوحيد إلى إنقاذه . كان هو أيضاً يحتاج مرحلة خطيرة من الحياة ، هذه المرحلة المخيفة التي يسقط فيها ملايين من الشبان الذين يستسلمون لخداع حواسهم ، ويضحون نهائيا بكل حياتهم في سبيل عامين أو ثلاثة من الملذات . ولو وجد أوليفيه متسعا من الوقت يستسلم فيه لأفكاره لوقع في اليأس أو الانحلال . كان كلما وجد فرصة يتأمل فيها نفسه انشغل بأوهامه المريضة ، بالنفور من الحياة ، من باريس ، من اختلاط هؤلاء الملايين من البشر اختلاطاً تفوح منه رائحة عفنة . ولكن كان مجرد رؤيته لأخته كفيلا بتبديد هذا الكابوس ، وبما أنها لا تعيش إلا من أجله فسيقبل الحياة ، نعم سيصبح سعيداً على الرغم منه ...

وهكذا شيدت حياتهما على أساس من إيمان عميق قوامه التصوف والتدين والطموح الرفيع . واتجه الاخوان بكل كيانهما نحو هذا الهدف الاوحد : نجاح أوليفيه . قبلت انطوانيت أن تقوم بأى عمل ، رضيت بالمذلات جميعاً : اشتغلت مدرسة للأطفال فى بيوت عوملت فيها معاملة تشبه معاملة الخدم ، كان عليها أن تحرس تلبيناتها فى نزهاتهن كأنها خادمة ، وأن تسير معهن ساعات طوالا فى الطرقات ، على زعم أنها تعلمهم اللغة الالمانية . إن حبها لآخيها ، وكبرياتها أيضاً ، جعلها تجد عذوبة فى هذه الآلام النفسية وفى تلك المتاعب .

كانت تعود إلى المنزل مزهقة لتغنى بأوليفيه الذى كان يقضى يومه فى الليسيه (كنصف داخلية) ولا يعود منها إلا فى المساء . وكانت تعد العشاء على موقد غازى أو على موقد كحولى . وكان أوليفيه لا يشعر بالجوع أبداً يتأفف من كل شئ . ويسبب له اللحم النفور ، وكان لا بد من دفعه على الأكل أو التحايل عليه بأصناف لذينة تعجبه . ولم تكن أنطوانيت المسكينة طاهية ماهرة ، ولم تكن يكدرها — بعد أن تبذل كل جهودها فى إعداد الطعام — أن يصرح أمامها أن طعامها لا يؤكل ، ولم تصل إلى نتيجة ما إلا بعد أن يئست مرات عديدة أمام موقدها فى المطبخ — هذا اليأس الصامت الذى تعرفه

ربات البيوت الصغيرات غير الماهرات يسمن أيامهن وأحياناً لياليهن دون أن يشعر أحد بأمرهن .

وبعد العشاء ، وبعد أن تنتهى انطوانيت من تنظيف الاواني القليلة التي استعمالها (وكلما حاول أخوها مساعدتها أبت ذلك) تبدأ قتهم بدروس أخيبا اهتمام الام بولدها فتستذكر له تلك الدروس وتراجع واجباته ، بل تساعد أيضاً فى بعض أبحاثه . وهى حريصة على ألا تجرح شعور هذا الإنسان الصغير الشديد الحساسية .

كانا يقضيان الامسية حول المنضدة الوحيدة التي يملكانها والتي يستعملانها للطعام والكتابة معا . وبينما كان أوليفيه يكتب واجباته كانت هى تقوم بالحياكة أو تنسخ بعض الاوراق . وعندما يكون نائما تهم باصلاح ملابسه أو تؤدي بعض أعمالها هى .

وبالرغم مما يصادفهما فى تصريف أمورهما من عقبات فقد قررا أن كل ما ينبجحان فى إدخاره سيستخدمانه — قبل كل شيء — فى التحرر من الدين الذى كانت أمهما قد اقترضته من أسرة « بويه » مع أنهما فى الواقع لم يشعرا بأن أسرة بوايه من أولئك الذين يلاحقون مدينهم بمضايقاتهم ، بل أن أحداً منهم لم يحاول رؤية « الجانان » وأصبحوا لا يفكرون فى هذا المال الذى ظنوه قد فقد نهائيا ، كانوا يعتبرون أنفسهم فى منتهى السعادة إذ تخلصوا من أقاربهم المخرجين بهذا الثمن . ولكن كبرياء الولدين وعاطفة البنوة عندهما

جعلتهما يتألمان أن تكون أمهما مدينة بشيء لهؤلاء الناس الذين يحتقرانها . لقد حرما نفسيهما وأدخرا على حساب أبسط ما يحق لهما من تسليات ، وعلى حساب ملابسهما وطعامهما حتى يصلا إلى جمع المائتي فرنك ، وهو مبلغ هائل بالنسبة إليهما . وودت أنطوانيت لو حرمت نفسها وحدها . ولكن عندما اكتشف أخوها عزمها لم يمنعه شيء من أن يحذو حذوها . وأضنيا نفسيهما في سبيل هذه الغاية وكان يسعدهما أن يدخرا بضعة سنتيمات كل يوم .

وتحملا شدة الحرمان فتوصلا إلى جمع المبلغ (سنتيما بعد سنتيم) في مدة ثلاث سنوات . وكانت فرحة كبيرة . ذهبت انطوانيت في إحدى الالمسيات إلى أسرة بوايه واستقبلت بدون ترحيب . فقد ظنوا أنها جاءت تطلب المساعدة . ورأوا من المستحسن لهم أن يادروا بلومها بطريقة جافة لأنها لم تزودهم بأى أخبار عن أسرتها ولم تبلغهم حتى عن نبأ وفاة أمها ، ولأنها لا تأتى إلا حينما تكون فى حاجة إليهم . وقاطعتهم قائلة أنها لا تنوى إزعاجهم وإنما أنت لتعيد إليهم ما اقترضته أمها منهم . ووضعت الورقتين المائتين على المنضدة وطلبت منهم مخالصة بالدين . وفى الحال تغيرت معاملتهم وتظاهروا بعدم رغبتهم فى قبول المبلغ . كانوا يشعرون نحوها بهذا النوع من العطف الفجائى الذى يشعر به الدائن نحو المدين عندما يرد إليه — بعد سنوات — دينا فقد الأمل فيه . وحاولوا أن يعرفوا أين كانت تسكن مع أخيها

وكيف يعيشان وتجنببت الرد وعادت تطالب بالإيصال ثم قالت بأنها متعجلة وحيثهم تحية بارده ثم انصرفت وشعر أفراد الأسرة بغضب شديد نحو هذه الفتاة الناكرة للجميل .

ولما وجدت أنطوانيت نفسها قد تحررت من هذا الكابوس عادت اتواصل حياة الحرمان ، ولكن من أجل أوليفيه هذه المرة كانت تفرط في إخفاء ذلك حتى لا يراها أخوها وأخذت تدخر على حساب زينتها وأحيانا على حساب طعامها من أجل مظهر أخيها وتسليته ، ولكي تزين له الحياة وتجعلها أكثر عذوبة . فعلت ذلك أيضاً لتمسكه بين وقت وآخر من الذهاب إلى الحفلات الموسيقية بل إلى الأوبرا التي يعتبرها سعادته الكبرى . وما كان يرغب في الذهاب إلى تلك الحفلات بدون أخته ولكنها كانت تخلق أعذاراً تتخلص بها من الذهاب معه تريح بها ضميره . كانت تدعى أنها جدد متعبة أو أنها لا تشعر بالرغبة في الخروج ، وإن تلك الحفلات تضايقها . ولم يكن ليصدق هذه إلا كاذب التي يولدها حب أخته له ، ولكن أناثية الصغر كانت تتغلب في نهاية الأمر . كان يذهب إلى المسرح وما يكاد يجلس هناك حتى تعاوده هواجسه كان يفكر فيها طيلة العرض فيفسد عليه ذلك سعادته ، وفي يوم أحد أرسلته أخته لحضور حفلة موسيقية في مسرح « الشاتيليه » ، فإذا به يعود بعد نصف ساعة قائلاً لها أنه لم يجد الشجاعة — وقد وصل إلى كوبري سان ميشيل — لأن يواصل

طريقه . لم تعد تلك الحفلة الموسيقية تعجبه إذ أنه أصبح يتألم كثيراً لعدم مشاركتها لياه السرور . ولم يكن هناك شيء أحب إلى نفس أنطوانيت مما سمعت ، على الرغم من أسفها لحرمان أخيها — بسبيها — من تسليية يوم الأحد . ولكن أوليفيه لم يفكر في هذا الأسف . وحين رأى — عند عودته — وجه أخته يتهلل بفرحة تحاول دون جدوى أن تخفيها ، شعر بأنه أكثر سعادة مما لو كان قد استمع إلى أجمل موسيقى في العالم . وقضيا فترة ما بعد الظهيرة ، جالسين ، كل أمام الآخر ، إلى جانب النافذة ، هو بكتاب في يده وهي بأشغال الابرة ، لا هو يقرأ ولا هي تعمل ولكنهما كانا يتحدثان عن أشياء تافهة لاتهمه ولا تهمها . ومع ذلك فلم يجدا أجمل من هذا الأحد . واتفقا على ألا يعودا إلى الاقتراق من أجل حفلات الموسيقى ، فقد أصبح كل منهما عاجزاً عن الحصول على السعادة بمفرده .

ونجحت في أن تدخر في الخفاء ما يكفي من المال لتفاجيء أوليفيه بأن تقدم له بيانو توجره له . وبطريقة تقسيط معينة يصبح ملكاً خالصاً لهما في خلال عدة شهور . ويا له من حمل ثقل أضافته إلى حملها ! إن هذه الاستحقاقات كانت أحياناً كالكلبوس بالنسبة إليها ، كانت تفسد صحتها بحثاً عن المال اللازم ، ولكن كم حققت لهما هذه الفعلة الجنونية من سعادة ، فالموسيقى كانت جنتهما في هذه الحياة القاسية ، لقد احتلت مكاناً ضخماً من حياتهما ولاذا بها لينسيا متاعب

الدنيا، ولم يكن ذلك بدون خطر فالموسيقى من أمضى المؤثرات الحديثة على النفس البشرية إنها تملأ النفس بخمول دافئ. أو بما يشبه جو الخريف المثير فتهيج المشاعر وتقضى على الإرادة، ولكنها كانت متنفساً لروح مكرهة على عمل مفرط لا بهجة فيه مثل عمل أنطوانيت. إن حفلة الأحد الموسيقية كانت الضوء الوحيد الذى يتلألأ بعد أسبوع من العمل المتواصل. كان يعيشان على ذكرى آخر حفلة موسيقية ذهبا إليها، وعلى أمل الحفلة المقبلة، على هاتين الساعتين أو الثلاث ساعات التى يقضيانها على هامش الزمن، بعيداً عن باريس. وفى انتظار طويل خارج المسرح، تحت المطر أو الثلج المتساقط، فى البرد أو الهواء جنباً إلى جنب، وهما يرتعدان خوفاً من ألا يجداً أما كن، كانا يسارعان بالدخول إلى المسرح ويجلسان فى أما كن ضيقة مظلمة حيث يضيعان وسط الزحام. كانا يختنقان ويدهمهما الناس ويكاد أن يغمر عليهما من شدة الحر والضيق، ولكنهما كانا سعيدين، وكان كل منهما سعيداً بسعادته وسعادة الآخر، وكما كان يسعدهما أن يمتلئ قلباهما بالمحبة والنور والقوة التى تتدفق من روح «بيتهوفن» وروح «واجنر» الكبيرتين. كان كل منهما سعيداً بأن يرى وجه أخيه يضىء، تلك الوجوه التى أضناها التعب والهموم السابقة لأوانها. وكانت أنطوانيت تشمر بمتهى التعب فتلقى بنفسها فى العش الدافئ اللذيذ. كأنما هى بين يدي أم تضمها إلى صدرها وتبكي فى صمت، فيأخذ أوليفيه بضغطة على يدها. لم يكن أحد ليلتفت

إليهما في ظلام المسرح الضخم الذى لم يكونا الوحيدين فيه بين الأرواح المعذبة التى تلجأ إلى حنان الموسيقى الذى يشبه حنان الأم .

كانت انطوانيت متدبنة إلى درجة كبيرة إذ أن الدين — إلى جانب الموسيقى — كان يعينها على الحياة . لم يفتها أبدا أداء صلوات طويله حارة كل يوم كما لم تهمل الذهاب إلى الكنيسة كل أحد . ووسط حياة مليئة بتعاسة ظالمة لم تستطع أن تمنع نفسها من الإيمان بحب الصديق الإلهى الذى يتألم معنا والذى سيواسينا في يوم من الأيام . وكانت على صلة قوية مع من فقدتهم ، صلة كانت أقوى من صلتها بالله ، اشركتهم معها سرأ في كل محنها ، ولكنها كانت ذات روح متحررة ، وعقل قوى مما جعلها تبتعد عن باقى الكاثوليك الذين كانوا ينظرون إليها نظرة بعيدة عن الرضى ، والذين وجدوا فيها روحا شريرة وأوشكو أن يعتبروها ملحدة أو في طريق الإلحاد لأنها باعتبارها فرنسية حقيقية لم تقبل أن تتخلى عن حرية تفكيرها . لم يكن إيمانها — عن انقياد كالقطيع الخفير — ولكن كان عن محبة .

أما أوليفيه فلم يعد مؤمنا فإن تفتت إيمانه البطيء الذى بدا منذ حضوره إلى باريس فى الشهور الأولى قد أتى على ذلك الإيمان كلية . تعذب لذلك كثيرا لأنه لم يكن من هؤلاء الذين هم من القوة أو أولئك الذين هم من الضعف بحيث يستغنون عن الإيمان ، لذلك اجتاز أزمات نفسية شديدة ، ولكنه كان يحتفظ بقلب متصوف ، ومهما وصل به

الاحقاد فإن فكرة مالم تكن أقرب إليه من فكرة أخته عن الإيمان.. ولذا عاش الاثنان في جو ديني . كان كل منهما يعود في المساء بعد اقتراقهما طيلة اليوم فتبدو لهما شقتهما الصغيرة كالمناء ، كالملجأ الحصين فقيرة باردة إلا أنها طاهرة بالرغم من ذلك . لكم كانا يشعران وهما فيها بأنهما بعيدان عن أفكار باريس الفاسدة ! ...

ولم يتعودا التحدث كثيراً فيما يكونان قد أتياه من أعمال : فعندما يعود الإنسان منهما إلى منزله لا يملك القوه ليعيش يومه الشاق مرة أخرى وهو يتحدث عنه ، بل هما يحاولان جهدهما — بطريقة لا إرادية — أن ينسيا معاً هذه الأعمال . وكانا يحرصان على عدم لقاء الأسئلة خصوصاً في الساعة الأولى لعودتهما عندما يلتقيان على العشاء . كانا يتبادلان التحية بالنظر ، وأحياناً لا ينطقان بكلمة واحدة أثناء الطعام ، وتنظر انطوانيت إلى أخيها الذي يترك طعامه ويستسلم لأحلامه — كما كان يفعل من قبل — عندما كان صغيراً ، وتداعب يده بلطف وتقول وهي تبسم :

— هيا ! تشجع !

فيبتسم ويستأنف طعامه . وينتهي العشاء دون أن يبذلا أى محاولة للحديث . كانا متعطشين إلى الصمت ولا تنحل عقدة ألسنتهما إلا في نهاية الطعام وذلك عندما يشعران بالراحة ويكون كل منهما — وقد أحاطت به عاطفة الأخوة — قد أزال عن نفسه آثار النهار البغيضة .

ويجلس أوليفيه أمام البيانو . وقد تعودت انطوانيت على أن تترك البيانو لعزف هو عليه ، إذ كان تسليته الوحيدة ، فاستسلم بكل ما فيه من قوة .

لقد خلق للموسيقى : إن طبيعته الانثوية التي تؤهله لأن يحب لا لأن يعمل ، كانت تمزج بأفكار الموسيقيين الذين يعزف لهم ، وتذوب مع تلك الأفكار ، وتؤدي أدق معانيها بإخلاص ينبعث من العاطفة ، بقدر ما تسمح له — على الأقل — ذراعه وطبيعته الضعيفة ، فكان ينهكه المجهود الهائل الذي يستلزمه عزف موسيقى « تريستان » أو « السونات » الأخيرة لبيتهوفن . وهكذا كان يفضل الالتجاء إلى موسيقى « موزار » و « جلوك » التي كانت انطوانيت تفضلها هي الأخرى .

وأحيانا كانت تغنى هي أيضاً ولكن أغنيات بسيطة للغاية لآلحان قديمة . كان صوتها من نوع « الميتزو » ذى النبرات المشوبة ، الحزينة ، المرتعشة وكانت تخجل لدرجة لا تستطيع معها الغناء أمام أحد . حتى أوليفيه كانت تجد صعوبة فى الغناء أمامه ويكاد صوتها يختنق . وكان هناك لحن لبيتهوفن فى أغنية اسكتلندية تحبها كثيراً اسمها : « جونى الوبى » كان وديعاً ، وديعاً ... رقيقاً للغاية . . . يشبهها ولم يكن يستطيع أوليفيه أن يسمعها تغنى هذه الأغنية دون أن تترقق عيناه بالدموع .

أما هي فكانت تفضل سماع أخيها ، كانت تسرع فى انجاز أعمالها المنزلية وترك باب المطبخ مفتوحاً ليتاح لها أن تسمع أوليفيه جيداً ،

وبالرغم من احتياطاتها أثناء العمل كان هو يشكو بعد أن ينفد صبره من الضجة التي تحدثها وهي تعيد الأواني إلى مكانها . حينئذ كانت تغلق الباب ، وعندما تنتهى من عملها تعود لتجلس على كرسي منخفض — لا بالقرب من البيانو — (فأوليفيه لا يطيق رؤية أحد بجانبه عند العزف) ولكن قريبا من المدفأة وفي هذا المكان — كقطة صغيرة تكومت على نفسها — تدير انطوانيت ظهرها للبيانو ، وقد تعلقت عينها بعيون الموقد الذهبية حيث تحترق قطعة من الفحم في صمت وتستسلم لصور الماضى . وعندما تعلن الساعة التاسعة تكون في حاجة إلى جهد لكي تذكر أوليفيه بأن الوقت قد حان للكف عن العزف . وكان من الصعب حمله على ترك موسيقاه كما كان من الصعب عليهما التخلص من أحلامهما . وكان لزاما على أوليفيه أن يستأنف عمله الدراسى فى المساء دون أن يمتد به السهر ولم يكن يطيع أخته على الفور لحاجته إلى بعض الوقت كي يستطيع ، بعد الانتهاء من موسيقاه أن يعود إلى العمل . ويسبح بعيداً بأفكاره وتدق الساعة معلنة النصف أحيانا قبل أن ينتشل نفسه من عالم الأحلام . وكانت انطوانيت ، وهى منكبة على أشغال التطريز فى الناحية الأخرى من المنضدة ، تعرف أنه لا يعمل شيئا ولكنها لا تجرؤ على أن تنظر كثيراً ناحيته خوفاً من أن يتضايق إذا شعر بمراقبتها له .

كان فى سن المراهقة — سن السعادة — حيث تمر الأيام الحائرة

كان ذا جبين نقي وعيون كعيون الفتيات ، ذات نظرات جريئة وساذجة وكثيراً ما تحيط به هالة من التعب . وكان ذا فم كبير وشفاه منتفخة كشفتى الطفل الرضيع ، ذات ابتسامة حائرة ، غامضة تائهة ، شاردة ، أما شعره فكان غزيراً ينزل حتى عينيه ويؤلف وفرة على قفاه مع خصلة عنيدة منتصبه ، وحول رقبته رباط مسترخ قليلا (مع أن أخته هي التي كانت تعقده له بعناية كل صباح) . وأما سترته فما كانت تثبت لها أزرار بالرغم من أن انطوانيت تضع وقتاً طويلاً في تثبيتها ولم يكن يضع للأكام أهداباً . وكان ذا يدين كبيرتين وقبضتين عظامهما بارزة .

وكان أوليفيه يبدو ساخراً ، ناعساً ، مستسلماً لحواسه وهو يحملق في الفضاء ، أما عيناه اللتان تلتقلان بين الأشياء فكانتا تدوران حول غرفة انطوانيت (حيث المنضدة التي يعملان عليها) وتتسكعان على السرير الحديدى الصغير الذى علق فوقه صليب من العاج مع غصن من البقس وعلى صورتى آيه وأمه ، وعلى منظر قديم يمثل بلديهما الريفية الصغيرة ببرجها ومياها اللامعة . وعندما تسقط عيناه على وجه أخته الشاحب وهي تعمل بصمت كان يحس بشفقة هائلة عليها وبثورة على نفسه ، فينتفض متضيقاً من تكاسله ثم يعمل بنشاط ليعوض الوقت الذى أضاعه .

كان يقرأ خلال العطلات ، كان كل منهما يقرأ وحده إذ أنهما على الرغم من حب أحدهما للآخر ، لم يكونا يستطيعان قراءة كتاب واحد

بصوت عال، لأن ذلك يجرح شعورهما كما لو كان فيه ما يخذش الحياة. وكان يبدو لهما أن الكتاب النفيس سر لا تفوه به الشفاه ولكن تتحدث به القلوب. وعندما يستهوى أحدهما صفحة ما، كان - بدلا من أن يقرأها للآخر - يعطيه الكتاب مشيراً بأصبعه على الجزء المقصود وبينما كان أحدهما يقرأ كان الآخر يتابع بعينين لامعتين ما يقرأ على وجه أخيه من مشاعر ويشاركه إياها. كانا يجلسان متكئين أمام كتابيهما لا يقرآن وإنما يتسامران. وكلما تغلغل الليل كلما احتاجا إلى أن يوحا بما في نفسيهما وبدأ يتلاشى ما كانا يجدان من صعوبة في الحديث. وكانت تتسلط على أوليفيه أفكار حزينة، وكان على هذا الإنسان الضعيف أن يتخلص دائماً من آلامه بأن يفرغها في صدر إنسان آخر، وكانت الشكوك تعذبه دائماً، وكان على انطوانيت أن تعيد إليه شجاعته وأن تحميه بما يساوره: معركة لا تنتهى، وتتجدد كل يوم، ويوح أوليفيه بأشياء مريرة وحزنة، لا يكاد يوح بها حتى يشعر بالارتياح ولا يهمه بعد ذلك أن يعرف ما إذا كان قد أثقل على أخته بما أباح إليها به. ولقد مضت مدة طويلة قبل أن يلاحظ كيف كان يضلها ويسلبها قوتها وينقل إليها شكوكه شيئاً فشيئاً. ولم تظهر انطوانيت شيئاً. كانت شجاعة بشوشة بطبيعتها، تضغط على نفسها لتحفظ ببشاشتها في الظاهر بينما هى قد فقدت مرحها من زمن. كانت تشعر في بعض الأحيان بملل شديد، بثورة ضد حياة التضحية التى وهبتها نفسها ولكنها كانت تريد القضاء على تلك الأفكار وترفض أن

تتعمق فيها ، فهي تعاني منها دون أن ترضى بها . وكانت تستأنس بالصلاة إلا حينما لا يستطيع القلب أن يقوم بأدائها (وقد يحدث هذا) عندما يحجب القلب تحت وطأة الآلام ، حينئذ لا يبقى أمامها إلا أن تلتظر صامته محبومة ، خجولة ، أن تدركها رحمة الله . ولم يدرب بخلد أوليفيه شئ من هذه الهواجس أبداً ، أما انطوائت فعندما تمر بهذه الأزمات تبحث عن عنبر مالتخلو بنفسها وتنفرد في غرقها ولا تظهر إلا عندما تكون الأزمة قد مرت وحينئذ تبدو ابتسامتها وعليها آثار الألم أكثر رقة من ذي قبل كأنما تؤنب نفسها لاستسلامها للعذاب .

كانت غرقتهما متجاورتين وسريراهما لا يفصلهما إلا حائط واحد . وكان في استطاعتهما أن يتحدادثا من خلاله بصوت خفيض ، وعندما يشعران بالآرق كانت بعض طرقات خفيفة على الحائط تقول :

— هل أنت نائم ؟ فأنا لم أنم .

وكان الجدار بينهما رقيقاً لدرجة جعلتهما كصديقين طاهرين يناما جنباً إلى جنب على سرير واحد . ولكن الباب الذي يفصل بين الغرفتين كان دائماً مغلقاً بالليل بدافع من الخجل الفطري الخالص — وهو شعور مقدس لدهما — ولا يظل هذا الباب مفتوحاً إلا في حالة مرض أوليفيه ، وما أكثر ما يحدث ذلك .

فإن أوليفيه لم يكن يسترد ما يفقد من صحته ، بل يبدو أن صحته كانت في تدهور مستمر . كان يشكو دائماً من آلام في حنجرتة ، في صدره ، في رأسه ، في قلبه . إن رشحاً بسيطاً كان كافياً لأن يعرضه للإصابة بالتهاب رئوى ، وقد أصيب بالحمى القرمزية وكادت أن تودى به . وكانت تبدو عليه أعراض غريبة لأمراض خطيرة ولكن دون أن يصاب بها فعلاً وكثيراً ما شعر بآلام حادة في الصدر أوفى القلب . ولقد قرر الطبيب الذى فحصه بأنه مصاب بالتهاب في غشاء القلب أو الغشاء الرئوى . وأكد الطبيب الإخصائى الكبير الذى استشير بعد ذلك صحة التشخيص . ومع ذلك فلم يصب أوليفيه بشيء من هذا . كان دائماً مصاباً باضطراب فى الأعصاب . وهذا النوع من الآلام يتخذ عادة أشكالاً لا تخطر ببال أحد وإن كانت لا تكلف الإنسان سوى أيام من القلق ولكن كم هى قاسية بالنسبة لانطوائت ! ولم مرت بها من ليال مسهرة !

كانت ترتعد خوفاً عندما تقوم من سريرها لتتصت بجانب الباب إلى أنقاس أخيها ظانة أنه أوشك على الموت ، كانت على يقين من ذلك ، بل كانت متأكدة فيه ، وحينئذ كانت تنتفض وتضم يديها بشدة وتعهدها على فها حتى تمنع نفسها من أن تصيح :

— يا إلهى ... يا إلهى ... لا تأخذه منى ... لا .. إن هذا .. هذا .. ليس لك الحق فيه ... أتوسل إليك ... إني أتوسل إليك ...

آه يا أمي العزيزة ... تعالى لنجدتي .. يارب أنقذ أخى ... دعه يعيش .

وتنتصب إلى أعلى قائلة

— آه كيف يموت في منتصف الطريق ، بعد كل ما حققناه ،
بعد أن أوشكنا أن نصل إلى هدفنا ، وبعد أن أوشك أوليفيه أن
يدرك السعادة . لا ، لا يمكن أن يموت ... إنها قسوة ، قسوة
لا يمكن احتمالها .

وبدا أوليفيه يسبب لها هموماً أخرى ، كان شريفاً مثلها تماماً ، ولكنه ضعيف الإرادة. وكانت أفكاره الحرة إلى أقصى حد ، والمعقدة في نفس الوقت ، تجعله مبليلاً بعض الشيء يشك في كل شيء ، يتساهل فيما يجمله وتجذبه الملذات إليها . وكانت انطوانيت على درجة من الطهارة جعلتها لا تفهم ما يدور في ذهن أخيها إلا بعد زمن طويل . وفي يوم من الأيام اكتشفت حقيقة الأمر فجأة ؟

ظن أوليفيه أن شقيقته قد غادرت المنزل . فقد تعودت أن تخرج في تلك الساعة لإعطاء الدروس إلا أنه حدث في ذلك اليوم أن تلقت في اللحظة الأخيرة ، كلمة من تليذتها تخطر لها فيها بأنها ستستغنى عن الدرس في ذلك اليوم ، وبالرغم من أن إلغاء هذا الدرس كان ينقص بضع فرنكات من ميزانيتها الضئيلة فقد سرت انطوانيت لذلك في قرارة نفسها . كانت حينئذ تشعر بسأم شديد، فتمددت على سريرها وشعرت بسعادة لأنها تمكنت من أن تستريح يوماً دون أن يؤنبها ضميرها . وعاد أوليفيه من الليسيه بصحبة أحد زملائه ، وجلسا في الغرفة المجاورة يتجاذبان أطراف الحديث . كان كل ما يقولان مسموعاً فقد كانا يتكلمان بحرية تامة ظناً منهما أنه ليس بالمنزل أحد . وظلت انطوانيت تنصت باسمة إلى صوت أخيها المرح ، ولكنها بعد قليل توقفت عن الابتسام وجمد الدم في عروقها فقد أخذ الشابان يتحدثان في مواضيع

غليظة معبرين عن ذلك بجرأة فاحشة وبدا عليهما التلذذ من الحديث وسمعت انطوانيت ضحكة اوليفيه، صغيرها اوليفيه ، والكلمات البذيئة تخرج من بين شفثيه . هاتان الشفتان اللتان كانت تعتقد حتى الآن أنها بريئتان . وشعرت بألم حاد يحز في قلبها ، وطال هذا الموقف ولم يكفها عن الكلام في هذا الحديث الذى اجتذبها والذى لم تستطع هى أن تمنع نفسها من أن تستمع إليه . وأخيراً خرج الصديقان وبقيت انطوانيت وحدها ، فبكت : إذ أن شيئاً ما من نفسها كان قد مات ، ألا وهو تلك الصورة المثالية التى كانت قد كونتها فيما سبق عن أخيها، — عن طفلها — لقد تلوثت تلك الصورة وكان ذلك بالنسبة إليها عذاباً مميّناً . وعندما تقابلا فى المساء لم تقل له شيئاً ولا حظ أوليفيه أنها قد بكت ولكنه لم يعرف السبب ولم يفهم لماذا غيرت انطوانيت معاملتها إزاءه واحتاجت هى إلى بعض الوقت حتى تما لك نفسها وتعود إلى طبيعتها.

ولكن أشد ضربة سددها إليها اوليفيه كانت تلك التى جعلته لا يعود إلى المنزل ذات مساء ، وسهرت انطوانيت طول الليل فى انتظاره وكانت تتألم ألماً لا يقتصر على الجانب الخلقى الطاهر منها ، بل كان ينفذ إلى الأعماق الغامضة من قلبها تلك الأعماق التى تضطرب فيها عواطف مهيبة كانت الفتاة تسدل عليها — لتلا تراها — حجاباً لا يباح كشفه .

وأهم ما دفع اوليفيه إلى فعله هذا هو رغبته فى إثبات استقلاله ،

وقد عاد في الصباح متخذاً مظهرأ خاصاً وعلى استعداد لأن يجيب أخته
بوقاحة إذا ما أبدت له ملحوظة ما . فدخل داخل الشقة على أطراف
قدميه لئلا يوقظها ولكن عندما رآها واقفة تنتظره وقد بدا عليها
الشحوب وظهرت آثار البكاء في عينيها الحمرأوين . عندما رآها تهتم
بأمره وتعد له طعام الإفطار قبل ذهابه إلى المدرسة في صمت ، دون
أن توجه إليه لوماً ما أو تقول له أى شيء ، وقد بدت شديدة الإعياء ،
وبدت كما لو إن كل ما فيها تأنيب حتى لأوليقيه ، عندما رأى كل ذلك ، لم
يتمالك نفسه فارتدى تحت أقدامها ، مخبئاً رأسه في رداثها وبكى وأخذ الاثنان
يكيان معا . كان خجلاً من نفسه مشمئزاً من تلك الليلة التي قضاها ،
يشعر أنه أصبح دنيئاً . أراد أن يتكلم ولكن أخته منعه من ذلك ،
بأن وضعت يدها على فمه فقبل تلك اليد . ولم يتلفظا بشيء . كانا
متفاهمين تماماً . وقد أقسم أوليفيه بينه وبين نفسه أن تكون أخلاقه
عند حسن ظن أنطوانيت ، أما أنطوانيت فلم تستطع أن تنسى بسرعة
ما ألم بها من جرح فكانت كالمتعافية من مرض وأصبح بين الشقيقين
عائق ما . لم يتزعزع حبها لأوليقيه ولكنها أصبحت ترى في نفس أخيها
شيئاً غريباً عنها ، شيئاً كانت تخشاه . .

وزاد من تأثرها إلى جانب ما اكتشفته في نفس أوليفيه أنها في تلك الفترة كانت تتألم من معاكسات بعض الرجال لها . فعند عودتها إلى المنزل في المساء والليل يسدل أستاره ، خاصة عند ما كانت تضطر للخروج بعد العشاء لإحضار الأوراق التي تقوم بنسخها أو إعدادها ، كانت تشعر باضطراب شديد عند ما يدنو منها بعض الرجال أو يتابعونها أو يلقون على مسامعها عروضا فظة . كانت تصطحب أخاها كلما أمكنها ذلك بحجة حضه على الزهرة ولكنه لم يكن يوافقها بسهولة وكانت لا تجرؤ على الإلحاح لأنها لم تكن تريد لإقلاقه في عمله . ولم تستطع روحها الريفية الطاهرة أن تعتاد خصال العاصمة إذ أن باريس ليلا كانت — بالنسبة إليها — كغابة فيها الوحوش الدنسة التي تطاردها ، فكانت ترتعد خوفا للخروج من مخبئها ولكنها كانت مضطرة لذلك . وكانت تتردد كثيراً قبل أن تعزم على الخروج وتتألم دائماً لذلك . وعند ما كانت تفكر أن صغيرها أوليفيه سوف يصبح — أو ربما كان — مثل أحد هؤلاء الرجال الذين يطاردونها كان يصعب عليها عند عودتها في المساء أن تمد إليه يدها لتصالحه . ولم يستطع أوليفيه أن يعرف سبب نفور أخته منه .

كانت أنطوانيت جذابة إلى درجة كبيرة دون أن تكون راعمة الجمال ، تجذب الأنظار دون أن ترغب في ذلك . كانت في لبسها غاية (٧٢ — أنطوانيت)

في البساطة وترتدى ملابس الحداد في أكثر الأوقات . لم تكن طويلة جداً وإنما كانت نحيفة ، رقيقة المظهر ، قليلة الكلام ، تمرق بين الناس دون أن يشعر بها أحد هاربة من الانظار وإن كانت تجذب الانظار بما في عينيها المتعبتين وفيها الصغير الطاهر من عذوبة عميقة . فكانت تلاحظ أحياناً إعجاب الناس بها فتعجل لذلك مع شعورها بشيء من الاختباط ، ومن ذا الذي يمكنه أن يعبر عن الشعور بالدلال اللطيف العفيف الذي يترك النفس خفية حينما تشعر هذه النفس بالآلفة تأتيا من النفوس الأخرى . كان ذلك يظهر في ارتباك بسيط في حركاتها وفي نظرة خجولة ترسلها من طرف عينيها ، وكان ذلك شيئاً ساراً ومؤثراً في نفس الوقت . إن هذا الاضطراب كان يزيد من جاذبيتها . وكانت تستثير الرغبات لدرجة تجعل البعض لا يحجل من مصارحتها بذلك نظراً لأنها فتاة فقيرة ولا معين لها في الحياة .

كانت أحياناً تذهب لزيارة إحدى عائلات اليهود الأثرياء : آل ناتان ، الذين أظهروا لها اهتمامهم منذ قابلوها في منزل أصدقاء لهم حيث كانت تعطى الدروس وبالرغم من حبها للوحدة لم تستطع أن تمتنع عن حضور سهرة أو اثنتين من سهراتهم . كان السيد الفريد ناتان أستاذاً معروفاً في باريس وعالمًا جليلاً ورجلاً من رجال المجتمع في نفس الوقت مما جعل منه مزيجاً غريباً

من العلم واللهم وذلك شيء مألوف في المجتمع اليهودى . أما مدام ناتان فكانت تجمع — بنسب متساوية — بين عملها الخيرى الصادق وإفراطها في الاندماج في المجتمع . وكان الاثنان سخين نحو أنطوانيت فيما يظهران لها من مودة صادقة ولكن في غير استقرار فعند اليهود نوع من الفضول الدائم يجعلهم يبحثون عن النفوس والأفكار النفيسة ، ولا معنى ذلك أنهم يفعلون شيئاً لمساعدة الآخرين إذ أن مصالح كثيرة تشغلهم في وقت واحد ولأن حب التظاهر متسلط عليهم أكثر من غيرهم بالرغم من ادعائهم التحرر من حب التظاهر — وهم على الأقل يفعلون شيئاً ما وهذا الأمر لا بأس به بالنسبة لجمود المجتمع المعاصر . فهم عنصر هام في نطاق العمل . ولم يكثر أحد من الكاثوليك بأمر أنطوانيت فلم تجد عندهم إلا البرود الذى يشبه حائطاً ثلجياً من عدم الاكتراث . ولذا فقد شعرت بقيمة اهتمام أسرة آل ناتان بأمرها وإن كان اهتماماً سطحياً . أدركت مدام ناتان حياة التضحية التى تعيشها أنطوانيت وشعرت بما لهذه الفتاة من جاذبية في مظهرها وطبيعتها ، ولذا حاولت أن تفرض عليها حمايتها . لم يكن عندها أولاد وكانت تحب الشباب وكثيراً ما كانت تجمع عندها شباناً وشابات ، وقد ألحت على أنطوانيت لتقوم بزيارتها هى أيضاً كي تخرج من عزلتها وتلهو قليلا ، ولما كان من السهل عليها إدراك سبب شعور أنطوانيت بالوحشة وأنه إنما يرجع

جزئياً إلى ضيقها المالى فقد أرادت أن تقدم إليها بعض الملابس الجميلة .
إلا أن كبرياء أنطوانيت أبى عليها ذلك . فرفضت . ولكن هذه السيدة
الفاضلة المحبة اتخذت مسلكاً آخر أدى إلى إجبار أنطوانيت على
قبول بعض تلك الهدايا الصغيرة التى كانت غالية الثمن بالنسبة للكبرياء
النسائى البرىء . وأزاء ذلك كانت أنطوانيت تشعر فى آن واحد
بعرفان الجميل والخلجل ولذا كانت تحاول جاهدة أن تحضر سهرات
مدام ناتان ولو من حين لحين وبحكم شبابها كانت تجد فى ذلك
بعض اللذة .

وفى هذا المجتمع الذى يخطط بين الناس ، وحيث يتقابل شبان
كثيرون أصبحت الفتاة الصغيرة البائسة الجميلة ، التى ترعاها مدام ناتان
هدفاً لاثنتين أو ثلاثة من الشبان الطاشين ، فحاولوا أن يوقعوها فى
شباكهم وطمعوا فيها معتمدين على خجلها حتى وصل بهم الأمر
إلى التراهن .

وفى ذات يوم بدأت ترد إلى أنطوانيت خطابات مجهولة — أو
بالأحرى خطابات ممضاة باسم مستعار رنان — تصارحها بالحب ،
كانت فى بادئ الأمر خطابات غرامية فيها التملق واللاحاح ، فيضرب
فيها راسلها موعداً للقاء وسرعان ما أصبحت تلك الخطابات أكثر
جرأة عن ذى قبل ، أخذت تستخدم التهديد ثم السب ثم النيمة الحفيرة
خطابات تجردها من ثيابها وتسرد أسرار جسدها بالتفصيل وتلوث

هذا الجسد بشهواتها الدنيئة تسعى إلى استغلال سذاجة أنطوانيت مهددة إياها بفضيحة علنية إن لم تحضر في الميعاد المحدد . وكانت أنطوانيت تبكي ألماً كلما شعرت أنها جلبت لنفسها عروضاً حقيرة كهذه . كانت تلك الإهانات تحرق كبريائها جسداً وروحاً ولكنها لا تدبرى كيف تخرج من هذا المأزق . لم تشأ أن تفتح أخاها في هذا الموضوع ، كانت تعلم أنه سيتألم كثيراً وأنه سيجعل المسألة تتخذ شكلاً أكثر خطورة . ولم يكن لها أصدقاء . فهل تلجأ إلى البوليس ؟ كانت ترفض ذلك خوفاً من الفضيحة . ومع ذلك فقد كان لا بد من إيجاد حل لهذا الموقف وقد شعرت أن سكوتها لا يكفي لحمايتها وأن الشقي الذي يطاردها سوف يكون عنيداً في موقفه وأنه سوف يصل إلى أقصى حد من الاستهتار ولن يتراجع إلا إذا وجد أنه سيقع في خطر . فقد بعث إليها برسالة كإنداز نهائي يأمرها بالذهاب إلى متحف اللوكسمبورج في الغد . فذهبت . وكانت قد اقترنت بعد أن أرهقت ذهنها في التفكير أن هذا الشخص الذي يضطهدا لا بد أن يكون قد قابلها عند مدام ناتان إذ أنه أشار في إحدى رسائله إلى أمر من المرجح أن يكون قد حدث هناك .

وتوسلت إلى مدام ناتان طالبة منها أن تؤدي لها خدمة كبيرة وهي أن ترافقها بعربة حتى باب المتحف وتلتظرها لحظة هناك . فذهبتا ودخلت أنطوانيت المتحف ، وعند ما وصلت أمام اللوحة المتفق

عليها اقرب منها الفتى الذى كان يهددها برسائله تعلوه علامات الانتصار .
وبدا يتحدثها فى ذوق مصطنع فحدثت فيه النظر دون أن تنطق بكلمة .
وعند ما انتهى من حديثه سأها ما زحاً لماذا تفحصه هكذا فأجابت :

— إنى أنظر إلى جبان .

ولم يضطرب لمجرد هذا التوبيخ وبدأ يكلمها بدون كلمة فقالت له
— أردت أن تهدنى بفضيحة ففجئت لأقدمها إليك ، أترغب فى ذلك ؟

كانت ترتعد وهى تتكلم بصوت مرتفع وكان ممكناً أن يلفت إليها
الأنظار وكان الناس ينظرون إليهما فعلاً . وشعر الشاب أنها لن
تراجع أمام أى شىء تخفض من صوته ، فرمته مرة أخيرة بقولها :

— إنك لجبان .

وأدانت له ظهرها فتبعتها كى لا يظهر فى صورة المنهزم . خرجت
أنطوانيت من المتحف والرجل يسير على أعقابها واتجهت نحو العربة
التي كانت تنتظرها وفتحت الباب على حين غرة فوجد الشخص نفسه
وجهاً لوجه أمام مدام ناتان التي عرفته وحيته باسمه . فاضطرب واختفى
عن الأنظار .

واضطرت أنطوانيت أن تروى لرفيقتها قصة هذا الشخص رغم
بأنها لم تفعل ذلك بدون أسف وتحتفظ شديد إذ أنه كان من الصعب

عليها أن تطلع سيدة غريبة على سر آلامها الناتجة عن حياتها المجرّوح.
فأخذتها مدام ناتان لأنها لم تنبها في بادئ الأمر وتوسلت إليها
انطوانيت أن لا تروى هذه القصة لأحد ، وانتهى الحادث عند هذا
الحد ولم تكن صديقة انطوانيت بحاجة إلى غلق باب منزلها في وجه
هذا الشخص إذ أنه لم يعد بعد ذلك أبدا .

وفي نفس الآونة تقريباً تأملت انطوانيت بألم من نوع آخر . فإن رجلاً نزيهاً للغاية يناهز الأربعين من عمره ويشغل وظيفة قنصلية في الشرق الأقصى كان قد عاد إلى فرنسا في أجازته لتمضية بضعة أشهر وقد قابل انطوانيت عند أسرة الناتان وأغرم بها ، وقد أعدت مدام ناتان هذه المقابلة دون علم انطوانيت إذ قررت في نفسها أن تتوسط في زواج صديقتها الصغيرة . كان يهودياً ولم يكن جميلاً بل كان أصلع قليلاً ومنحنى الظهر ولكن كانت له نظرة طيبة ، مخلصاً في معاملاته مع الناس وله قلب يرثى لآلام الغير إذ كان هو نفسه قد قاسى الكثير . ولم تعد انطوانيت هذه الفتاة الصغيرة الخيالية ، هذه الطفلة المدللة التي تتخيل الحياة كأنها زهرة مع الشخص الحبيب في ذات يوم جميل ولكنها كانت تنظر إلى الحياة الآن وكأنها معركة عنيفة يجب على المرء أن يستأنفها كل يوم دون كلل ، وإلا فقد في لحظة واحدة كل الأرض التي اكتسبها شبراً شبراً بعد سنوات كلها تعب . وأخذت انطوانيت تصور لنفسها كم يكون عذراً أن تتكئ على ذراع صديق يشاركها متاعها وتستطيع أن تغمض عينيها قليلاً بينما هو ساهر عليها . كانت على يقين من أن هذا كان حليماً ولكنها لم تجد بعد الشجاعة الكافية لتودع ذلك الحلم نهائياً ، والحقيقة أن انطوانيت لم تكن تجهل أن الفتاة التي لا تملك مهراً ليس من حقها أن تأمل شيئاً في المحيط الذي تعيش فيه .

فالطبقة البرجوازية الفرنسية العتيقة معروفة في العالم كله بالعقلية المادية الدينية التي تواجهها مسائل الزواج . إن هؤلاء البرجوازيين يفوقون اليهود أنفسهم في شغفهم الدنيء بالمال . فكثيراً ما يختار شاب يهودي ثرى فتاة فقيرة شريكه لحياته ، أو أن فتاة غنية تبحث بلهفة عن رجل مفرط في ذكاته ، أما عند البرجوازي الكاثوليكي الرقيق فإن كيس النقود يبحث عن كيس النقود . ولماذا يفعل هؤلاء البؤساء ذلك ، إن حاجياتهم تافهة فهم لا يعرفون سوى الآكل والشاوب والنوم والإدغار . كانت انطوانيت تعرفهم جيداً فقد رأتهم منذ طفولتها بمنظار الثراء كما رأتهم بمنظار الفقر ولم تعد تتوهم أن في استطاعتها الاعتماد عليهم . لذلك شعرت بسرور عميق غير منتظر عندما تقدم لها هذا الرجل طالباً يدها ، ومع أنها لم تشعر نحوه بالحلب في بادئ الامر إلا أنها أخذت تشعر إزاهه بحنان عميق وبعرفان للجميل . ومع ذلك رفضت طلبه ، وما كان لها أن ترفض لولا أنه كان لزاماً عليها أن تتبعه إلى المستعمرات وأن تترك أخاها . وأدرك هذا الصديق سمو الأسباب التي دفعتها إلى الرفض ، إلا أنه لم يغفر لها ، فالحب أنا الذي يطلب من الحبيب أن يضحي من أجله بكل شيء حتى أجل الصفات التي يتحلى بها ولا يقبل منه دون ذلك . وامتنع الرجل عن رؤيتها ولم يرسلها بعد سفره وانقطعت أخباره عنها حتى أرسل إليها يوماً — بعد خمسة أو ستة شهور — دعوة مكتوبة بخط يده تدبها بزواجه من امرأة أخرى .

واكتابت انطوانيت كثيرا لهذا النبا . وامتلا قلبها بالحسرة مرة
أخرى ونذرت آلامها لله ، أرادت أن تقنع نفسها بأنها تستحق العقاب
الذى نزل بها لأنها نسيت — ولو للحظة — مهمتها الوحيدة : التضحية
من أجل أخيها . وحيث لم تعد تفكر في غير تلك المهمة .

واعزلت انطوانيت العالم وانقطعت عن زيارة آل ناتان الذين أظهروا
نحوها فتورا منذ رفضت العريس الذى قدموه لها ، هم أيضاً لم يقتنعوا
بأسباب رفضها . ولقد جرح كبرياء مدام ناتان ألا يتم هذا الزواج
بسبب انطوانيت . وكانت قد قررت بادية الامر أنه سيتم وأنه سيكون
موفقاً للغاية . لم تكن تشك في أن لدى انطوانيت أسباباً وجيهة
للرفض وإن كانت أسباباً عاطفية مبالغاً فيها ، وبين عشية وضحاها
مخلت عن هذه الفتاة المليئة بالكبرياء — في نظرها وانشغلت عنها ،
إذ أن رغبته الملحة في تقديم المساعدة للناس — سواء أرادوا ذلك
أم لا — وقفها لاختيار فتاة أخرى بسطت عليها حمايتها ، فاستنفدت
كل ما كان فى استطاعة مدام ناتان حينئذ أن تقدم من إخلاص
وإهتمام لإنسان ما .

كان أوليفيه على جهل تام بالأحداث المؤلمة التى اتخذت قلب
انطوانيت مسرحاً لها . فقد كان صيياً طائشاً يعيش فى الأحلام ، ومن
العبث الاعتماد عليه فى شيء رغم تفكيره الجذاب وعقله الملىء بالحياة
وقلبه الذى يتدفق منه الحنان مثلاً يتدفق من قلب انطوانيت .

أما مجهوداته التي تستمر شهوراً متتالية فقد كانت معرضة للضياع نتيجة لأعمال تافهة أو نتيجة لتكامل أو يأس أو حب خيالي يستنفد كل وقته وقواه . كان يعشق من يصادف من فتيات جميلات أو يغرم بفتيات صغيرات مدللات لم يتحدث معهن أكثر من مرة في مجتمع ما رغم أنهم لا يعرفونه أى اهتمام وكثيراً ما عشق كتاباً أو قصيدة أو لحناً فأغرق نفسه فيه شهوراً طويلة على حساب دراسته . وكان على انطوانيت أن تراقبه دون ملل وفي حذر شديد حتى لا ينتبه إلى ذلك وحتى لا تفرح شعوره ، وكانت تخشى دائماً أن يتهور في تصرفاته فقد كان محمواً دائماً متلفهاً لكل شيء ، غير متزن ، يسارع إلى الأمور بقلق بالغ كما يفعل الذين يترقبهم مرض السل . ولم يخف الطيب عن انطوانيت مدى ما في ذلك من خطورة ، فأوليفيه كان بطبيعته كالنبات الهزيل الذي نقل من موطنه الأصلي إلى باريس ، بينما هو في حاجة إلى الضوء والهواء النقي . ولكن انطوانيت لم تستطع أن توفر له ذلك فلم يكن لديها من المال ما يسمح لها بالابتعاد عن باريس أثناء العطلة الصيفية . وفي باقي أيام السنة كانوا ينهمكان في أعمالها طوال الأسبوع ويبلغ منهما التعب أشده أيام الاحاد فلا يجدان ميلاً إلى الخروج من المنزل إلا إذا كانت هناك حفلات موسيقية .

ومع ذلك ففي بعض آحاد الصيف كانت انطوانيت تغالب نفسها وتضطرب أخاها إلى الغابات المجاورة لباريس من ناحية « شافيل » أو « سان كلو » ، ولكن تلك الغابات تكون عادة مليئة برجال يصطحبون

النساء وسط الضجيج والغناء الشعبي والأوراق الملونة الملقاة على الأرض .. فلا يجدان وسط كل هذا ما يشدان من قدسية الوحدة التي تريح النفس وتنقيها ، ويعودان في المساء في فوضى القطارات المزدهمة حيث تتكدس الناس في جو خائق داخل عربات الضواحي المنخلة الواطئة . كانت هناك ضوضاء وضحك وغناء وإباحية ورائحة كريهة تخرج بدخان التبغ .. ويعود أوليفيه وانطوانيت من هذه الرحلة متأنفين وقد فقدوا روحهما المعنوية التي كانت تنفر من تلك المظاهر الشعبية . ويتوسل أوليفيه إلى أخته ألا تعود إلى تلك النزعات ، ولا تجد انطوانيت في نفسها الرغبة في تكرارها قبل أن يمضي وقت طويل . ومع ذلك ورغم كراهيتها لهذه النزعات التي تفوق كراهية أوليفيه لها كانت تعتقد أنها ضرورية لصحة أخيها فترغمه على أن يعود إليها ولكن التجارب الجديدة لم تكن أسعد من الأولى ويؤنبها أوليفيه على ذلك في شدة وحيث يظنان محبوسين في المدينة الخائفة ومن ساحة عجنهما كانا يتوقان إلى الحقول .

وصل أوليفيه في دراسته إلى المرحلة النهائية ، وكان عليه أن يؤدي في نهاية ذلك العام امتحان مدرسة المعلمين العليا ، حان الوقت فعلا للالتقاء من هذه الدراسة . وشعرت انطوانيت بوطأة التعب . كانت تعتقد أن شقة قها سينجح إذ أن الظروف جميعا كانت تهيؤه للنجاح ، فقد كان من الطلبة الممتازين في « الليسيه » ، وأجمع مدرسوهُ على تقدير أعماله وذكائه لولا أن التفكير المنظم كان ينقصه ، مما جعل من الصعب عليه إخضاع فكره لآية خطة ثابتة ، ولكن شعور أوليفيه بالمسئولية الملقاة على عاتقه كان يرهقه إلى درجة أخذت تفقده القدرة على العمل كلما اقترب موعد الامتحان ، بل أن التعب المضني والخوف من الرسوب وخجله الذي أصبح كالمريض بالنسبة إليه ، كل هاتيك كانت تشل تفكيره قبل الامتحان بمدة . كان يرتعد لمجرد التفكير في أنه سيقف بين يدي ممتحنيه ولكم سبب له خجله من عذاب ا كان وجهه يحمر خجلا ويكاد يخنق عندما يأتي دوره ليتكلم ، وكان لا يجيب إلا بصعوبة — في بادئ الامر — إذا نودي اسمه ، ثم أنه كان من السهل عليه أن يجيب على سؤال فجائي أكثر مما لو كان يعرف أن ثمة سؤالا سيلقى عليه ، وحينئذ يصبح كالمريض ولا ينقطع ذهنه عن التفكير مهيناً له كل ما سيحدث بالتفصيل ، وكلما طال انتظاره ازداد به التفكير . وليس هناك امتحان إلا وأداه مرتين على الأقل :

يؤديه مرة في الأحلام في الليالى السابقة للامتحان حيث يستنفد كل نشاطه وهكذا لا يتبقى من نشاطه شئ للامتحان الفعلى .

على أنه لم يستطع مجرد الوصول إلى تأدية الامتحان الشفهي الخفيف الذى كان يجعل العرق يتصبب منه أثناء الليل لمجرد التفكير فيه ، ففي امتحان الفلسفة التحريرى عجز أوليفيه عن أن يكتب ولو صفحتين فى ست ساعات بينما كانت المادة جدية باستهوائه فى ظروف عادية أخرى . كان ذهنه خاوياً خلال الساعات الأولى من الامتحان ، لم يفكر فى شئ ، فى أى شئ على الإطلاق وخيل إليه أن أمامه حائطاً أسود يصطدم به كلما حاول التفكير . وتشقق هذا الحائط قبل انتهاء الوقت المحدد للامتحان بساعة واحدة وتدقت من هذا الحائط إشعاعات من النور . وتمكن أوليفيه عندئذ من كتابة بعض السطور الممتازة ولكنها لا تكنى لنجاحه . ورأت انطوانيت علامات الانهيار على وجه أخيها فأدركت أنه راسب لا محالة ، وشعرت باليأس مثله تماماً . ولكنها لم تظهر له شيئاً وعلى كل فقد كان لديها قدره دائماً على الاحتفاظ بالأمل فى أشد الظروف يأساً .

ورسب أوليفيه فى المسابقة .

وذهل لذلك . أما انطوانيت فكانت تتظاهر بالابتسام كما لو كان الامر غير ذى أهمية ولكن شفتيها كانتا ترتعدان ، وأخذت تواسى

شقيقتها قائلة له أنه من السهل عليه تعويض ما نتج عن سوء الحظ ،
وأنه سينجح دون شك في العام التالى وبترتيب أفضل . ولم تقل له
كم كان يهمها أن ينجح فى ذلك العام ، ولا كيف تشعر بجسدها وروحها
يضمحلان لحشيتها ألا تتمكن من احتمال عام آخر كالذى انقضى ،
ولكن الضرورة كانت تحتم عليها أن تحتمل ، فلو أنها اختفت قبل أن
ينجح أوليفيه لما وجد الشجاعة الكافية للاستمرار فى كفاحه وحده:
سوف تفرسه الحياة .

لذلك أخفت انطوانيت عن أخيها أعباءها ، وضاعفت جهودها ،
وتفانت لتوفر له بعض التسلّيات أثناء العطلة الصيفية ، حتى يعاود
العمل بقوة جديدة فى بدء العام الدراسى . ولما حان الوقت وجدت
انطوانيت أن القليل من المال الذى أدرته قد نفذ علاوة على أنها
فقدت أكثر الدروس التى كانت تعود عليها بفائدة كبيرة .

ومضى عام آخر . وتوترت أعصاب انطوانيت وشقيقتها أمام الامتحان
النهائى وكادت أن تنحطم . كان عليهما قبل كل شيء أن يعيشا وأن يبحثا
عن سبل أخرى للعيش . فقبلت انطوانيت وظيفة مدرسة لأمرة
فى المانيا حصلت عليها بفضل أصدقائها من آل ناتان . كان ذلك آخر
حل تود انطوانيت أن تلجأ إليه . إذ لم يكن ثمة حل آخر فى ذلك
الحين ولم تعد تستطيع الانتظار ، فنذت سنوات وهى لم تفارق
شقيقتها يوماً واحداً . وأصبحت لا تتصور كيف تعيش الآن دون

أن تراه أو تستمع إليه . وكلما فكر أوليفيه في ذلك الأمر شعر بالفرع ولكنه لم يجرؤ على الكلام : ألم يكن هو السبب في هذا الشقاء ، لو أنه نجح لما اضطرت انطوانيت أن تلجأ إلى مثل تلك الحلول . ولم يعد من حقه أن يعترض على هذا الحل الذي ارتأته أخته . كان على انطوانيت أن تقرر الأمور وحدها .

وقضى الشقيقان الأيام التي تسبق سفر انطوانيت في ألم صامت كما لو كان أحدهما على وشك الموت . وكلما اشتدت وطأة الألم على واحد منهما كان ينعزل عن الآخر ويختبئ . إن انطوانيت تنظر إلى شقيقةها تستقي النصيحة من نظراته . لو أنه قال لها :

— لا ترحلي ! .

لعدلت عن سفرها رغم شدة ضرورته . وحتى اللحظات الأخيرة . وهما في العربة التي أقلتتهما إلى محطة الشرق كانت انطوانيت على استعداد لأن تعدل عن قرارها إلا أنها لم تجد في نفسها القوة الكافية للتنفيذ ، انتظرت كلمة من شقيقها ، كلمة واحدة ولكنه لم يتفوه بها . . كان هو الآخر يتجلد مثلها .

وبلغت منه أن يعدها بالكتابة إليها يومياً وألا يخفى عنها شيئاً ، وأن يدعوها إليه فوراً إذا ما طرأ أدنى شيء .

ورحلت انطوانيت . وعاد أوليفيه حزينا إلى عنبر النوم في الليسه ، حيث قبل الالتحاق بالقسم الداخلى ، بينما كان القطار يحمل انطوانيت التى بدا عليها الألم وأخذت ترتعش من البرد . لم يغمض لكليهما جفن طوال الليل ، إذ كان كل منهما يشعر بأن كل دقيقة تمر به تبعده عن الآخر ، وأخذا يتناجيان بصوت خافت .

كانت انطوانيت تشعر بخوف من الحياة الجديدة التى تقبل عليها . لقد تغيرت كثيراً فى السنوات الست الماضية . لقد كانت فيما مضى من الشجاعة بحيث لا يرهبا شئ ، ثم تعودت السكون والوحدة لدرجة جعلتها تتألم كلما اضطرت إلى أن تحيد عن ذلك . انطوانيت الضاحكة ، الثرثارة ، المرحه أثناء الايام السعيدة التى انقضت وانقضت معها حياتها ، لقد جعل منها البؤس فتاة برية ، ولا شك أن عدوى الخجل قد انتقلت إليها آخر الامر من أوليفيه . كان من الصعب عليها التحدث مع أى شخص خلاف أخيها . أصبحت تهاب كل شئ وتخاف حتى من الزيارات العادية . ولذا كانت تشعر بغم شديد لمجرد التفكير فى أنها ستعيش مع أناس غرباء وتتحدث إليهم ، وتكون موضع نظراتهم على الدوام . هذه الفتاة المسكينة لم يكن لديها — كما لم يكن لدى أخيها — أى استعداد للتدريس . فكانت تؤدي واجبها بأمانة رغم

أنها لم تكن تؤمن به . ثم أن شعورها بما لعملها من عدم الفائدة لم يساعدها على أداء ذلك العمل . لقد خلقت لئب الحب للناس ، ولم تخلق للتدريس ، ولكن أحداً لم يكثر لعاطفتها .

وكان منزل الأسرة التي عملت لديها في ألمانيا آخر مكان يصلح لإظهار تلك العاطفة ، إذ أن أسرة جرونوم التي كلفتها بتدريس اللغة الفرنسية للأطفال لم تعرها أى اهتمام . فأفراد تلك الأسرة كانوا مزيجاً من الكبرياء والألفة ، لا يبالون بشئ ، وإن كانوا فضوليين . كانوا يدفعون أجوراً لا بأس بها ، إلا أنهم كانوا ينظرون إلى من يقبض مالهم كأنه مدين لهم بالجميل ، ويعتقدون بعد ذلك أن من حقهم أن يتصرفوا معه كما يشاءون . لذلك عاملوا انطوائيت كما لو كانت خادمة ذات مستوى يعلو قليلاً عن باقى الخدم . ولم يتركوا لها أى حرية تقريباً ، حتى أنها لم يكن لها غرفة خاصة بها . كانت تنام فى غرفة صغيرة ملاصقة لغرفة الأطفال ، يظل بابها مفتوحاً أثناء الليل . وهكذا لم تستطع أن تنفرد بنفسها لحظة ، ولم تبال الأسرة لحاجة انطوائيت فى أن تنطوى على نفسها من وقت لآخر ، هذا الحق المقدس فى أن ينفرد كل إنسان بمشاعره الداخلية . كانت كل سعادتها أن تلتقى بأفكارها مع شقيقها ، وتحدث إليه مستغلة اللحظات التى تتمتع فيها بالحرية ، ولكن حتى تلك اللحظات كانوا ينازعونها إياها وما تكاد تكتب كلمة واحدة حتى تجعد فى الغرفة من يحوم حولها ويسألها عما

تكتب ، وإذا ما قرأت خطاباً سألوها عما فيه . وكانو يستخبرون عن :
« الشقيق الصغير ، بطريقة ودية وإن لم تخل من سوء الظن والسخرية .
وكان على انطوانيت أن تخفي . . وقد يخجل الإنسان عندما يعلم الوسائل
التي كانت الفتاة تلجأ إليها أحياناً ، وكيف كانت تحبس نفسها في أماكن
منعزلة لتقرأ — دون أن يراها أحد — خطابات أوليفيه . ولو حدث
مرة ونسيت خطاباً في مكان ما بفرقتها فما لاشك فيه أن ذلك الخطاب سيقراً
حتماً . ولما لم يكن لديها من الآثا المحكم ، الذي يمكن أن تحتفظ فيه
بحاجياتها ، سوى حقيبتها الكبيرة ، فقد كانت مضطرة لأن تحمل معها
كل ما تملك من أوراق لا ترغب في أن يطلع عليها أحد . كانوا يفتشون
دائماً في حاجياتها كما كانوا دائمي البحث عما يدور في نفسها وكانوا
يذلون جهدهم لكي يصلوا إلى ما في أعماقها من أسرار ، ولم يكن ذلك
اهتماماً من آل جرونوبوم بأمر انطوانيت ، ولكن اعتقاداً منهم أنها
ملك لهم ما داموا يدفعون لها أجراً ، وعلى كل حال فهم لا يفعلون
ذلك عن سوء قصد ، وإنما لأن الفضول كان عادة أصيلة لديهم حتى
أنهم لا يشعرون لذلك بأى حرج فيما بينهم .

ولم يكن هناك شيء أصعب احتمالاً على نفس انطوانيت من هذا
التجسس المستمر ، وهذا التجرد من الجيأ الذي لم يكن يسمح لها بأن
تهرب — ولو ساعة كل يوم — من أنظار الفضوليين ، ولم يلبث
التحفظ والكبرياء الذي تواجه به انطوانيت آل جرونوبوم إن ألمهم .

وكانوا طبعاً يجدون في المثل الأخلاقية العالية أسباباً يبررون بها فضولهم
الفظ ، ويستنكرون بها رغبة انطوانيت في أن تتحاشى ذلك . كانوا
يؤمنون أن من حقهم معرفة كل شيء عن الحياة الخاصة لتلك الفتاة
التي تعيش عندهم كواحدة من أفراد الأسرة والتي وكلوا إليها أمر تربية
أطفالهم ، من أجل ذلك كله فهم مسئولون عنها . (وكثيرات من ربات
البيوت يدعين هذه المسئولية بالنسبة لخدمهن ، وإن كانت هذه المسئولية
تقتصر على حرمان هؤلاء المساكين من أى بهجة في الحياة ، إلا أنها
لا تجنبهن الأعمال الشاقة أو الكريهة) واستنتج ال جرونوم أن
انطوانيت لا بد وأن تكون مذنبه لرفضها الاعتراف بواجبهم الأدبي
نحوها فالفتاة الشريفة ليس لديها ما تخفيه من أسرار .

وهكذا أحيطت انطوانيت بحجم من الاضطهاد ، اضطرها أن تكون
دائماً على أهبة الاستعداد للدفاع عن نفسها . وزادها ذلك جهوداً في
مظهرها وانطواء على نفسها يتجاوز المألوف .

كان يصلها يومياً من أخيها خطابات لا تقل صفحاتها عن اثنتي عشر .
وتمكنت من الرد على كل خطاب ولو ببضعة سطور . ولقد حاول
أوليفيه أن يبدو شجاعاً وأن يخفي ما استطاع من ألمه ، ولكن المال كاد
يقتله ، إذ أن حياته كانت أبداً مرتبطة بحياة شقيقته لدرجة جعلته
يشعر بأنه فقد نصف كيانه بعد أن افترق عنها . فلم يعد يعرف كيف
يستعمل فكره أو حتى ذراعيه وساقيه ، لم يعد يعرف كيف يتنزه

أو كيف يعزف على البيانو ، لم يعد يعرف كيف يعمل أو كيف لا يعمل ولم يعد يرى في أحلامه شيئاً سوى أخته . وأخذ ينكب على كتبه من الصباح حتى المساء ولكن دون أية فائدة ، إذ أن فكره كان بعيداً . كان يتعذب في نفسه عندما يفكر في أخته وفي رسالة الأملس ويظل يحرق في ساعة الحائط منتظراً الرسالة التالية التي ما يكاد يتسللها حتى ترتعد أصابعه فرحاً — وخوفاً أيضاً — وهي تمزق الغلاف . لم يحدث قط لحبيب تسلم من حبيب له رسالة فاضطرب حناناً وقلقاً مثلها حدث لأوليفيه . لقد كان يتوارى كما كانت تفعل أخته ليقرأ رسائلها التي يحتفظ بها دائماً معه . وكان إذا جاء الليل يضع آخر رسالة فصله منها تحت وسادته ، ويظل يتفقدتها من وقت لآخر ليطمئن عليها في ساعات الأرق الطويلة التي يداعب خياله فيها ظل أخته العزيزة . كم كان يشعر بوطأة البعد عنها ، وكانت نفسه تنقبض بوجه خاص إذا ما تأخر البريد في حمل رسالة انطوانيت إليه فلا تصله إلا بعد مضي يومين من إرسالها . ما أطول اليومين والليلتين بينهما ! كان يبالي في طول الوقت والمسافة التي تفصل أحدهما عن الآخر ، لا سيما وهو لم يسافر من قبل . كان خياله دائم العمل فهو يقول لنفسه : ديا إلهي اما العمل إذا مرضت ؟ إنه لمن المحتمل أن تموت قبل أن يمكنه رؤيتها . لماذا لم تكتب إليه إلا بضعة أسطر في اليوم السابق ؟ هل كانت مريضة ؟ نعم لقد كانت مريضة — وعندئذ يكاد يخفق أوليفيه . وكان التفكير يذهب به — أكثر من ذلك — إلى الفزع خوفاً من أن يموت بعيداً عن شقيقته وهو وحيد وسط زملائه الذين لا يكثر ثون بأمره ، وفي هذه

الليسية التي تشتمز منها النفس وفي باريس الكثيرة . كان يفكر كثيراً في هذا الاحتمال حتى يمرض فعلاً فيتسائل : هل يكتب إليها لكي تعود ؟ ولكن سرعان ما كان يخلطه هذا الجبن . وعلى كل حال ، فما أن يشرع في الكتابة حتى يشعر بسعادة في التحدث إليها تجعله ينسى لمدة قصيرة آلامه . وكان يخيل إليه أنه يراها ويستمتع إليها فيروى لها كل شيء في خطباته . لم يحدث أبداً عندما كانا معاً أن حدثها بمثل هذه المودة الصادقة وبمثل هذه العاطفة التي تجعله يناديها : « شقيقتي المخلصة الشجاعة ، شقيقتي الصغيرة الحبيبة الطيبة التي أحبها حباً جما ، إنها كانت رسائل غرامية حقاً .

وكانت خطابات أوليفيه هذه تغمر انطوانيت بحنانها المتدفق ، فكانت النسيم الذي تستنشقه الفتاة طوال يومها ، وإذا ما تأخرت في الصباح عن الميعاد المنتظر ظهر عليها البؤس . وحدث إن آل جرنوم تأخروا مرتين أو ثلاثة حتى المساء في تسليمها خطابات أخيها ، وكان ذلك عن عدم اكتراث أو ربما عن سوء قصد وفي مرة أخرى أهملوا أمر الخطاب حتى اليوم التالي فانتابت انطوانيت الحمى . وفي يوم رأس السنة خطرت لها ، هما الإثنان ، فكرة واحدة دون أن يتفقا عليها ، ففاجأ كل منهما الآخر ببرقية مطولة (كلفتهما الكثير) ووصلت إليهما في ساعة واحدة . وكان أوليفيه مستمراً في استشارته لانطوانيت فيما يختص بأشغاله ، وما يعتريه من قلق فتسدى إليه انطوانيت النصيح ، وتسانده ، وتبث فيه قوتها .

ولكن انطوائيت كانت هي نفسها في حاجة إلى القوة ، إذ كادت تختنق في هذا البلد الغريب حيث لا تعرف أحدا ولا يهتم بأمرها أحد ، اللهم إلا زوجة لأحد المدرسين ، جاءت أخيرا للإقامة في تلك المدينة ، وكانت هي أيضا تشعر بالغربة وأحست هذه السيدة الكريمة بشئ من حنان الأم ، وتأثرت لآلم هذين الشقيقتين الصغيرين اللذين أفرقا رغم حبهما الشديد . (وقد نجحت في أن تنزع من انطوائيت جزءا من قصتها) ، ولكن هذه السيدة كانت تحب الضجيج وتتصرف بطريقة عامية ، تنقصها اللباقة والرزانة ، إلى حد جعل انطوائيت ذات الإحساس المرفه تنطوى على نفسها . لذلك لم تتمكن الفتاة من أن تبوح بما في قلبها لأحد ، وأخذت تكتم همومها فتشعر بين الحين والحين بأنها قد أوشكت على السقوط تحت هذا العبء الثقيل ، ولكنها كانت تمض على شفتيها وتستأنف السير . وساءت صحتها فانتابها هزال شديد . لقد كانت خطابات أوليفيه تزداد بأسا . وفي أزمة من الضيق كتب إليها قائلا :

— عودي ، عودي ، عودي !

وما كاد يرسل هذا الخطاب حتى شعر بالخيال من نفسه فكتب خطابا آخر يرجو فيه من أخته أن تمرق الخطاب الأول ولا تفكر فيه ، وادعى المرح ، وأنه لم يعد في حاجة إلى شقيقته . فقد كان يهجر كبرياه أن يعتقد أحد أنه لا يستطيع الاستغناء عن أخته .

ولكن انطوائيت كانت تدرك أمر أوليفيه تماماً فكانت تقرأ ما يدور في ذهنه دون أن تدري ما تفعل . وفي أحد الأيام أوشكت على العودة ، فذهبت إلى المحطة لتستفسر عن موعد قيام قطار باريس بالضبط ، ولكن سرعان ما قالت لنفسها أن هذا ضرب من الجنون ، فإن النقود التي تحصل عليها هنا تسمح لها بدفع مصاريف أوليفيه المدرسية وأنه طالما استطاعا الاحتمال وجب عليها الثبات ، ولم يعد لانطوائيت ما يلزمها من حزم لاتخاذ أى قرار . فكانت تعود إليها في الصباح شجاعته الفائقة ولكن حين يقترب منها ظل المساء كانت تخور قواها فتفكر في الحرب . كانت تشعر بالحنين إلى وطنها ، هذا الوطن الذي طالما كان قاسياً ، ولكن مع ذلك يتطوى على كل ما كانت تقدسه في ماضيها ، أنها كانت تتوق إلى اللغة التي يتحدث بها شقيقها ، والتي كانت تعبر بها عن حبه له .

وحدث أن مرت بالبلدة الألمانية الصغيرة فرقة من الممثلين الفرنسيين ، ومع أن انطوائيت لم تذهب إلى المسرح إلا نادراً (إذ لم يكن لديها الوقت ولا الميل لذلك) فقد شعرت بحاجة ملحة للذهاب إلى المسرح لتستمع إلى من يتكلمون بلغتها ، ولتلجأ فترة قصيرة إلى فرنسا . فوجدت الأماكن قد نفذت فقابلت الموسيقار الشاب جان كريستوف ، ولم تكن تعرفه . وعندما رأى علامات الإخفاق ترسم على وجهها دعاها للمشاركة في مقصوده الخاصة ، فقبلت دون

تفكير . ولكن نبأ وجودها مع كريستوف أشاع الرثرة في المدينة الصغيرة ، وسرعان ما وصلت الشائعات إلى أسماع آل جرونباوم وكان هؤلاء على استعداد تام لتصديق كل ما يشاع عن تلك الفتاة الفرنسية ، وكانوا من جهة أخرى شديدي السخط على كريستوف ، فاستغنوا عن خدمات انطوانيت في جفاء .

أما هذه الفتاة البريئة ، ذات النفس المرفهة الحجول ، التي ملك عليها حبها لأخيها كل حواسها والتي لم يلحق بها أي دنس فكري ، فكادت تموت خجلا عندما أدركت معنى الاتهامات الموجهة إليها ولم تتحامل لحظة واحدة على كريستوف ، فهي تعلم أنه بريء مثلها ، ولئن كان قد تسبب لها في أذى فلقد أراد لها خيرا فكانت تحفظ له الجليل ، لم تكن تعرف عنه أي شيء سوى أنه موسيقار وأنه موضع انتقادات شديدة ورغم جهلها بما تنطوي عليه حياة الرجال فلقد كان لديها شعور خطري ، أرهقه البؤس ينبؤها بما في النفوس وقد لاحظت أن هذا الشخص الذي جاورها في المسرح قد ينقصه شيء من التريئة ، وقد يكون شاذاً إلى حد ما ، ولكنه كان على سذاجة تماثل سذاجتها ، فيه رجولة مصحوبة بحنان . وكانت انطوانيت تشعر بالارتياح كلما تذكرت هذه الصفات . وكل ما سمعته من سوء عن كريستوف لم يؤثر في ثقتها به ، فلقد شعرت أنها أمام ضحية أخرى ، يتألم مثلها حينئذ من بعيد نتيجة لشروع من يفترون عليه . ولما كانت انطوانيت

قد اعتادت أن ثقّل عن أمورها في سبيل التفكير في الغير فقد شغلته
إلى حد ما ، فكرة آلام كريستوف عن آلامها هي . وما كانه
لأنطوانيت أن تسعى بأى حال من الأحوال لأن تلتق به مرة
أخرى أو أن تكتب إليه ، تمنعها من ذلك طبيعتها التي تجمع بين الحياة
والكبرياء . وقدرت أن كريستوف يجهل الأذى الذي سببه لها .
وتمنت لطيفة قلبها أن يجهل ذلك دائماً .

ورحلت أنطوانيت ، وشاء القدر أن يتقابل القطار الذي
أقلها بعد ساعة من تركه المدينة مع قطار كريستوف العائد من مدينة
مجاورة كان قد قضى فيها يومه . وتقابلت نظراتهما في سكون الليل ،
عندما توقفت عربتهما بضع دقائق جنباً إلى جنب . لكنهما لم يتكلما ،
وهل كانا في وسعهما أن يتبادلا غير الكلام العادى ؟ هذا الكلام
العادى الذى يحتمل أن يغض من قداسة شعورهما الغامض بالشفقة
المتبادلة والاستلطاف الخفى ؟ هذا الشعور المجهول الذى نشأ
بينهما ، والذى لم يكن يرتكز إلا على إحساس داخلى قوى . فى هذه
اللحظة الأخيرة وعندما كانا لا يعرفان بعضهما ، تبادلا النظرات .
ورأى كل منهما فى الآخر صورة تختلف تماماً عن تلك التي يراها
فيهما كل من يعيشون معها . إن كل شئ يمر . ذكرى الكلام
والقبلات ، وتعاقد الأجساد الحية ، ولكن ذكرى الأرواح

آلى التقت وتعارفت وسط حشد من الأشياء الزائلة لا تمحى أبدا .
هذه الذكرى كانت انطوانيت قد حملتها معها ضمن أسرار قلبها
الذى غمرته الأحزان ، تلك الأحزان التى بدأ يظهر من خلالها
حسوه خفى مثل النور الذى تسبح فيه جنة « أورفيه » التى تتحدث
عنها الأساطير .

والتقت انطوانيت بأوليفيه . كان الوقت قد حان لأن تعود .
إذ أن أوليفيه كان مريضاً . هذا الفتى العصبي المضطرب الذى كان
يرتجف لمجرد فكرة المرض رفض وهو فى أشد حالات الألم أن
يكتب لأخته خشية أن يقلقها . ولكنه كان يناديها فى سره ويتوسل
إليها أن تعود كما لو كانت معجزة من السماء .

وتحققت المعجزة . كان حينئذ طريح الفراش فى مستشفى الليسيه
محموماً ، غارقاً فى أحلامه ، ولم يصرخ حين رأى انطوانيت ، فكم رآها
فى الأوهام وهى تعود إليه ، ولكنه رفع قامته من على السرير وفغر فاه
وهو يرتعد خوفاً من أن يكون ذلك وهما جديداً . ولما جلست
انطوانيت إلى جانبه على السرير واحتوته بين ذراعيها والتصق هو
بصدرها ، وشعر بنعومة خدها تحت شفتيه ، ويديها اللتين أثلجتهما
ليلة السفر ، عندما تيقن أنها أخته حبيبته ، أخذ يبكى . وهل كان
فى استطاعته أن يفعل غير ذلك ؟ .. لأنه ما زال - كما كان وهو طفل -
كالطير الصغير . وأخذ يضمها إليه خشية أن تفر منه مرة أخرى .
لكم تغير كلاهما ويا لمظهرهما الحزين . . . ومع ذلك فماذا بهمة
ما داماً قد التقيا ؟ لقد عاد كل شيء مضيقاً أمام عينيهما : المستشفى
والليسيه ، والنهار المعتم . والآن وقد أمسك كل منهما بالآخر فلن

يفرق بينهما شيء بعد ذلك . وقبل أن تنبث انطوانيت بينت شفة طلب منها أوليفيه أن تقسم له أنها لن تفارقه بعد ذلك . وما كان في حاجة إلى ذلك . لا ، إنها لن ترحل بعد ذلك . لقد ذاقا مرارة الألم وهما بعيدان كل عن الآخر ، كانت أمهما على حق عندما كانت تقول أن أى شيء في الدنيا أهون من الفراق ، حتى البؤس وحتى الموت يهونان بشرط أن نعيش معا .

وأسرعا فاستأجرا مسكنا . كانا يودان العودة إلى مسكنهما القديم رغم رداءته لولا أنه كان قد شغل . أما المسكن الجديد فكان هو أيضا يطل على فناء وكانت هناك شجرة طلع صغيرة تبدو من وراء حائط ، لم يلبثا أن تعلقا بها كما لو كانت صديقا ريفيا سجيناً مثلهما وسط شوارع المدينة . وسرعان ما استعاد أوليفيه صحته أو ما تعودا على تسميته كذلك (فالصحة بالنسبة لأوليفيه كانت تبدو مرضا بالنسبة لشخص آخر أقوى منه) إن رحلة انطوانيت إلى ألمانيا كانت كتيبة ، إلا أنها عادت منها بشيء من المال وزاد دخلها من ترجمة كتاب ألماني قبل أحد الناشرين أن يطبعه لها . وابتعدت الالتزامات المالية عنهما مدة من الزمن . وكان ممكناً أن يسير كل شيء على ما يرام إذا نجح أوليفيه في نهاية العام . ولكن ماذا يحدث ياترى إذا لم ينجح أوليفيه ؟

وبدأ شبح الامتحان يقترب منهما بعد أن عادا يشعران بلذة العيش سويا ، كانا يتجنبان الكلام في هذا الموضوع ، ولكن عبثاً

حاولا ذلك ، فقد كانا دائماً يعودان إليه . إن فكرة الامتحان كانت تطاردهما في كل مكان حتى إذا حاولا الترويح عن نفسيهما ، تقفز تلك الفكرة فجأة وسط لحن من ألحان حفلاتهما الموسيقية ، حتى في الليل كانا يستيقظان ليجداها أمامهما كاهوة العميقة . كان أوليفيه شديد الرغبة في تخفيف آلام أخته وفي تعويضها عن شبابها الذي ضحت به من أجله ، إلا أنه كان إلى جانب ذلك شديد الفزع من الخدمة العسكرية التي كان من المستحيل تجنبها إذا لم ينجح (وفي ذلك الوقت كان القبول في المدارس العليا يعني من الخدمة العسكرية) . وسواء أكان على حق أم لم يكن ، فقد كان يشعر باشمزاز خفي من هذا الاندماج الجسدي أو المعنوي ومن ذلك الانحلال الذهني الذي يراه في حياة الشكنات . كل ما كان لديه من أرستقراطية وطهر كان يدفعه إلى الثورة على هذا الالتزام وربما فضل عليه الموت . وهذا شعور يجب على المرء أن يسخر منه ، بل أن يزدريه باسم الأخلاق التي أصبحت دين العصر الحديث ، ولكن لا يستطيع أن ينكر هذا الشعور إلا الأعمى ، فليس هناك شيء أعمق من هذا الشعور بالآلم ، ألم الوحدة الخلقية الجريحة من اعتداء المشاعر الجماعية الغليظة عليها .

وأعيد الامتحان مرة أخرى وكاد أوليفيه ألا يؤديه لأنه كان متعبا . وكان شديد الخوف من الاضطرابات النفسية التي كان عليه أن يجتازها في الامتحان سواء نجح أم رسب . كان يخشاها لدرجة

جعلته يكاد يتمى لو مرض تماما . إلا أنه اجتاز الامتحان التحريرى بشكل مرض هذه المرة ، ولكن كم كان يشق عليه انتظار نتيجة هذا الامتحان اولقد كان من التقاليد العتيقة فى بلاد الثورة الفرنسية الكبرى وهى أكثر بلاد العالم تمسكا بالروتين ، أن تعقد الامتحانات فى أشد أيام السنة حرارة ، فى شهر يوليو ، كما لو أنهم يعتمدون الاجهاز على أولئك المساكين بعد أن أثقلت كواهلهم تلك البرامج الطويلة التى قاموا بتحضيرها والتى لا يعرف واحد من ممتحنهم عشر ما فيها ، وأعلنت نتيجة البحوث الأدبية فى اليوم التالى لعيد ١٤ يوليو ، ولتلك الضوضاء الشعبية وهذا المرح الذى يبدو ثقيلًا على نفوس غير المرحين والذين هم فى حاجة إلى السكون . وأقيمت حلقة للألعاب الشعبية فى الميدان الذى كان يجاور منزلها وكانت الطلقات النارية تتلاحق ، ويرتفع عويل الخيول الخشبية التى كانت تديرها الآلات البخارية ، كما كانت تسمع صيحات الصناديق الموسيقية من الظهر حتى منتصف الليل . واستمرت هذه الاضواء ثمانية أيام بأكملها ، ثم سمح رئيس الجمهورية ، دعاية له ، بنصف أسبوع آخر لأصحاب هذه الألعاب الصاخبة ، وما كان ذلك ليكلفه شيئًا ما دام لا يسمعونهم ، إلا أن أوليفيه وانطوانيت أنهكتهما الضوضاء وأخذت تدق على رأسيهما واضطرتهما إلى إغلاق النوافذ والاختناق داخل الحجرة ، فكانا يصمان أذانهما محاولين دون جدوى أن يهربا من شبح تلك الألحان السخيفة التى كان صريرها يظل مرتفعاً من الصباح حتى المساء ،

والتي كانت تحترق رموسهما كأنها ضربات سكين ، كان الشقيقان يثنان من شدة الألم .

وبدأت الامتحانات الشفوية بعد إعلان نتيجة الامتحان التحريري بفترة وجيزة ، وتوسل أوليفيه إلى شقيقته أن لا تحضر معه هذا الامتحان . فانتظرت هي ياب القاعة وكانت أكثر منه خوفاً . ولم يحدث قبل ذلك أن قال لها أنه مرتاح إلى طريقة أدائه الامتحان قبل هذه المرة بل كان يشغل بالها بذكر ما قاله وما لم يقله في الامتحان .

وجاء يوم النتيجة النهائية وأعلنت أسماء الطلبة الناجحين في فناء السوربون . فلم تشأ انطوانيت أن تترك شقيقها يذهب إليها وحده . كان كل منهما أثناء مغادرته للمنزل يفكر — دون أن يصرح للآخر — كيف أنهما عند عودتهما إلى هذا المنزل سيكونان على علم بالنتيجة ، وربما شعرا حينئذ بالأسف على هذه اللحظات التي قضياها خائفين بالرغم مما تبقى لهما من أمل . واقتربا من السوربون فشعرا بأرجلهما تخور وقالت انطوانيت لأخيها — هي التي تعودت أن تكون شجاعة :

— لا تمشى مسرعاً هكذا ، أرجوك .

ونظر أوليفيه إلى شقيقته التي حاولت أن تبسم وقال لها :

— ألا تريدان الجلوس لحظة على هذا المقعد ؟

وتمنى أوليفيه ألا يكمل طريقه لولا أن شدت انطوائيت على يده
بعد لحظة وهي تقول :

— لست متعبة يا صغيرى ، لنواصل سيرنا .

ولم يهتديا إلى كشف الاسماء فى أول الأمر فقرأ كشوفاً كانت
كلها خالية من اسم جانان وأخيراً وقع نظرهما على الاسم فلم يدركاه
فى بادىء الأمر بل أخذوا يعيدان قراءته دون أن يصدقا ما يريان .
ولما تأكدا من صحة الأمر ومن أن جانان هو أوليفيه وأنه قد نجح
فى الامتحان لم ينبثا بينت شفة وعادا مسرعين إلى المنزل . كانت
انطوائيت ممسكة بذراع شقيقها وبمعصمه ، أما هو فكان متكئاً عليها .
كادا يعدوان وهما سائران لا يريان شيئاً مما حولهما وعرضا نفسيهما
للخطر وهما يعبران الطريق وكل منهما ينادى الآخر :

— يا صغيرى . . . يا صغيرتى . . .

وصعدا إلى المنزل وكانا يثبان درجات السلم أربعاً أربعاً ، وما كادا
يصلان إلى غرقتهما حتى تعانقا . ثم أمسكت انطوائيت يد شقيقها
واقادته حيث علقت صورة أيهما وأمهما بجوار السرير فى أحد
أركان الغرفة التى كانت عندها بمثابة المحراب ، وركعا معاً أمام الصور
واسترسلا فى بكاء صامت .

وأعدت انطوانيت طعاماً شهيماً للعشاء ، لكنهما لم يقربا منه فقد كانا لا يشعران بالرغبة فى الأكل ومرت بهما السهرة وأوليفيه يجلس تحت أقدامها أو على ركبتيها وهى تدله كأنه طفل صغير . وكادا ألا يتكلمان فما كانا يملكان مجرد القوة التى تجعلهما يشعران بالسعادة ، كانا قد تحطيا . ووقدا فى الفراش قبل الساعة التاسعة واستغرقا فى نوم عميق .

وفى اليوم التالى بدأت انطوانيت تعاني من صداع أليم بالرغم من أنها تخلصت من الحمل الذى كان يثقل قلبها، وخيل إلى أوليفيه أنه بدأ أخيراً يتنفس بحرية ، لقد أنقذ ، أنقذته أخته . . أخته التى أدت رسالتها على أكمل وجه ، أما هو فقد أثبت أنه جدير بما علقته عليه أخته من آمال . . . ولأول مرة بعد سنوات ، بعد سنوات طويلة . . استسلبا للكسل ، ظلا راقيدين حتى الظهيرة يتحدث كل منهما إلى الآخر من سريره ، وقد تركا باب الغرفة مفتوحاً . كل منهما يرى الآخر فى مرآة كانت بالغرفة تعكس صورة وجهيهما اللذين يفيضان بالسعادة وإن بدا عليهما الانتفاخ من شدة التعب ، كانا يتسلمان ويتبادلان القبلات من بعيد ثم يغلبهما النعاس من جديد فيراقب كل منهما صاحبه أثناء نومه وقد حطمتما شدة التعب فأصبحا لا يقويان إلا على النطق ببعض الكلمات الرقيقة القصيرة .

وظلت انطوانيت تدخر قرشاً على قرش حتى يصبح لها ولاخيها مبلغ صغير يلجأ إلى في حالة المرض . ولم تكن بعد قد أخبرت أوليفيه بالمفاجأة التي تعدها له بهذا المبلغ . وفي اليوم الذي تلا نجاحه أبلغته أنهما سيرحلان لقضاء شهر في سويسرا مكافأة لهما على السنوات الماضية المليئة بالشقاء . ولما كان أوليفيه حيثئذ واثقاً من قضاء ثلاث سنوات في مدرسة المعلمين العليا على نفقة الدولة ومن الالتحاق بوظيفة بعد تخرجه فقد أصبح في إمكانهما الإسراف في النفقات حتى ولو أدى ذلك إلى استنفاد كل ما يملكان من مال . واستقبل أوليفيه هذا النبأ بصيحات من الفرح ، أما انطوانيت فكانت أسعد منه : كانت سعيدة بنشوة أخيها وسعيدة لأنها أخيراً ستحظى برؤية الريف مرة أخرى وكانت في شدة الشوق إليه .

وشغلتهما استعدادات السفر بدرجة بالغة ، ولكنها كانت تسعد كل لحظتهما . وعندما سافرا كان قد انقضى جزء من شهر أغسطس . ولما لم يكونا قد تعودا من قبل كثرة السفر فإن أوليفيه لم يَمِ الليلة السابقة للرحيل كما أنه لم يَمِ في الليلة التي قضاها في القطار ، فقد خشي طيلة اليوم أن يفوتهما القطار . وفي المحطة أسرعاً في اضطراب وسط الحشود المتدفقة . ثم ركبا في ديوان من الدرجة الثانية حيث جلسا

وهما متضايقان ولم يجدا شيئاً يستندان عليه ليناما (وكانت هذه هي إحدى الامتيازات التي تحاول بواسطتها الشركات الفرنسية المتغالية في ديمقراطيتها حرمان المسافرين الفقراء من الراحة لتتيح للأثرياء فرصة التفكير في أنهم هم وحدهم الذين ينعمون بالراحة) ولم يغمض أوليفيه جفن لحظة واحدة . لم يكن دائماً متأكداً تماماً من أن قطاره هو القطار المطلوب ، فظل يترقب أسماء المحطات . أما انطوانيت فكان يداعبها النعاس فأخذت تستيقظ بين الحين والحين . كانت حركة العربات تهز رأسها هزاً عنيفاً ، وكان أوليفيه ينظر إليها على ضوء المصباح الحزين الذي يعلو تلك التوايت المتجولة ، وقد أدهشه تغير ملامحها . بدت عيناها غائرتين وتركبت فيها الذي يشبه فم الطفل ينفتح قليلاً في ملل وسأم . كان لون بشرتها مصفراً كما أن تجاعيد صغيرة كانت قد أذبلت خدودها حيث بدت آثار الأيام البائسة ، أيام الحزن واليأس . وبدى عليها الكبر والمرض . لشدة ما كانت متعبة . ولينتها كانت تجرؤ على تأخير السفر ولكنها لم تشأ أن تفسد على شقيقها فرحته . ولذا أرادت أن تقنع نفسها بأن التعب هو الذي يسبب لها هذه الآلام التي لن تلبث زيارتها للريف أن تبددها . آه . . . كم كانت تخشى أن تمرض أثناء الطريق . . . وأحست انطوانيت حينئذ أن أوليفيه ينظر إليها فتخلصت بجهد من حالة الخمود التي كانت تخيم عليها ثم فتحت عينيها ، عينيها اللتين ظللتا صافيتين ناصعتين تفيضان شباباً ، واللتين قد يمر فيهما من حين إلى حين نظرة خوف لا إرادي تشبه

مرور السحب فوق بركة صغيرة . وسألها أوليفيه عن حالتها بصوت خافت وقلق يملؤه الحنان . فأمسكت يده وأكدت له أنها بخير . إن كلمة عاطفية واحدة كانت كفيلاً بأن تعيد إليها حيويتها .

وعندما بسط الفجر أضواءه الوردية فوق الريف الشاحب بين بلدة دول دبو وترليه ظهر منظر الحقول وهي تستيقظ والشمس الباسمة وهي تهرب مثلهما من سجن الشوارع والمنازل المترية ودخان باريس الكثيف . كأن الضباب الخفيف يلف المراعى المتماوجة بأنفاسه البيضاء كاللبن . وكانت كل معالم الطريق تستوقف انتباه انطوانيت وأخيها : برج صغير لكنيسة إحدى القرى ، جدول ماء يشق طريقه ، ومجموعة من التلال ترسم خطأ أزرق يحلق في الأفق البعيد ، أو صوت أجراس خافتة حزينة يأتى بها النسيم من بعيد إلى أسماعهم عندما يتوقف القطار وسط الريف الناعس ، وقطيع من الأبقار يقف في هيئته وقورة مستسلماً للإحلام على مرتفع فوق الطريق . كل هذه الأشياء كانت تستلفت أنظار انطوانيت وأخيها ، بدا كل شيء في نظرهما جديداً ، كانا كشجرتين جفتا تستقبلان مياه الأمطار بشغف كبير .

وفي الصباح كان عليهما أن يبرا بالجرى السويسرى في محطة صغيرة وسط الريف : كانا يشعران بالتعب أثر ليلة السفر الشاقة ، وكانا يرتعدان قليلاً من برودة الفجر ورطوبته ، ولكن الهدوء

كان سائدا والسماء صافية وأنفاس المروج تصعد من حولها فتدرك
الافواه والالسن ثم تتغلغل في الحناجر حتى تصل إلى داخل الصدور
كأنها جدول صغير . وتناول أوليفيه وأخته على منضدة في الخلاء
فجنا من القهوة الساخنة المنعشة المزوجة باللبن الدسم العذب الذي
تشبع برائحة الأعشاب وزهور الحقول .

ثم ركبوا بعد ذلك عربات القطار السويسرى وكان معبداً بطريقة
حديثة سراً لها سرور الأطفال . ولكن انطوانيت كانت تشعر بخمول
شديد ولم تعرف سبباً لهذا الاضطراب الذى تملكها ولم تشعر إلا
بقسط بسيط من السعادة مع أنها كانت ترى كل شئ جميلاً من حولها
وممتعاً للغاية ، ألم يكن ذلك هو كل ما تمنته منذ سنوات : سفر جميل
وشقيقها بجانبها وسط الطبيعة الجميلة ، بينما قد زالت من أمامها هموم
المستقبل ماذا بها إذن ؟ وأخذت تلوم نفسها على هذا التفكير وترغم
نفسها على الإعجاب بما تشاهد وعلى مشاركة أخيها مرحلة الساذج

وتوقفاً في بلدة تون كان عليهما أن يرحلا منها إلى الجبل في اليوم
التالى ، ولكن حدث وهما بالفندق أثناء الليل أن انتابت انطوانيت
حمى شديدة مع قىء وآلام في الرأس . ولم يلبث أوليفيه أن طار
عقله وقضى ليلة وهو في أشد حالات القلق ، وفي الصباح كان لا بد
من استدعاء الطبيب . (وكانت تلك زيادة غير منتظرة في المصاريف ،

ولا هي باليسيرة بالنسبة إلى ميزانيتها المحدودة (ولم تكن انطوانيت في خطر ولكن الطبيب وجدها في حالة إرهاق بالغة وانهار في صحتها . ولم يعد هناك أى تفكير في مواصلة الرحلة بعد ذلك مباشرة . إفتقد حذر الطبيب انطوانيت من القيام طول النهار وأفهمهما بأنها ربما اجتاحت إلى الإقامة في بلدة تون مدة أطول مما تظن . وأسفاً لذلك رغم أنهما سرا للتخلص من هذه الشدة بهذا الثمن البسيط بعد ما ساورهما من مخاوف . ولكن كان من الصعب عليهما أن يقطعا كل هذه المسافة ليجلسا نفسيهما في غرفة بهذا الفندق رديئة التهوية تضرب فيها الشمس المحرقة كما لو كانت بيتاً زجاجياً لتربية النباتات . وأبدت انطوانيت رغبتها في أن يخرج أخاها للنزهة . وخطي أوليفيه بضع خطوات خارج الفندق ورأى جبل «الار» برداته الأخضر الجميل بينما ظهرت على البعد قمة بيضاء تحلق في أعلى السماء . لقد اضطرب أوليفيه سروراً أمام هذا المنظر ولكنه لما لم يكن قد تعود التمتع بمثل هذه البهجة بمفرده فقد عاد مسرعاً إلى غرفة شقيقته وقص عليها كل ما رآه . ولما أبدت انطوانيت دهشتها لعودته المبكرة وحثته على مواصلة نزهته أجابها كما كان يجيبها في الماضي عندما يعود من إحدى حفلات شاتليه الموسيقية .

— لا ، لا ، إن هذه المناظر جميلة للغاية ويؤلمني ألا نراها سوياً .
لم يكن هذا الشعور جديداً بالنسبة إليهما . كانا على يقين أنه لا بد

وأن يكونا معاً ليكونا فرداً كاملاً ولكن كان كل منهما يجد لذة كبيرة في أن يسمع أخاه يؤكد له ذلك . وكانت هذه الكلمات الرقيقة أقوى أثراً على انطوائيت من أى دواء لدرجة جعلتها تنقسم لها في سعادة وفنور . وبعد أن قضت ليلة هادئة ، ورغم أن مواصلتها للسفر كانت تعرضها لشيء من الخطورة فقد قررت انطوائيت أن يهربا في ساعة مبكرة دون إخطار الطبيب الذى خشيا أن يحجزهما مدة أخرى . وكانت مجازفة مرت بسلام ، فالهواء النقي وسرور انطوائيت لرؤيتها الأشياء الجميلة مع أخيها جعلهما يصلان دون متاعب جديدة إلى نهاية الرحلة ، إلى قرية في الجبل تطل على بحيرة قريبة من بلدة سير .

وهناك قضيا نحو ثلاثة أسابيع أو أربعة في أحد الفنادق الصغيرة . ولم تعاود الحمى انطوائيت ومع ذلك فهي لم تعد كما كانت أبداً . فقد أخذت تشعر بثقل في رأسها — ثقل غير محتمل ، وبانحراف دائم في صحتها — وكان أوليفيه يستفسر كثيراً عن صحتها إذ كان يتعنى أن يرى وجهها أقل شحوباً ، وكان جمال البلدة يسكره فيحاول — بغير زته — إبعاد الأفكار الكثيرة عن نفسه ويميل إلى تصديق انطوائيت عندما تؤكد له أنها بصحة طيبة ، رغم معرفته — في قرارة نفسه — أن الحقيقة تناقض ذلك . ومع كل فإنها كانت تتمتع كل التمتع بما يبدو على أوليفيه من فرحة ، كما كانت تستمتع بالهواء وبالراحة على الأخص ، يالها من متعة أن تستريح أخيراً بعد تلك السنوات الشاقة .

وكان أوليفيه يريد أن يسطحها في كل نزحاته وكان بودها أن تشاركه في جولاته . ولكن كثيراً ما حدث أن رحلت معه وكلها حماس ولكنها بعد ثلث ساعة كانت تضطر إلى التوقف عن السير وهي تلهث وقلها يخفق . حينئذ كان أوليفيه يواصل جولاته بمفرده — ويتسلق الجبال التي لا خطورة في تسلقها ، وإن كان ذلك يجعل أخته ترتجف خوفاً عليه حتى ساعة عودته . وفي أحيان أخرى كانا يقومان معاً بنزهات قصيرة فتسكى هي على ذراعيه ويسيران في خطى وميدة وهما يتجاذبان أطراف الحديث ، ويكرر أوليفيه حينئذ من الكلام ويضحك وهو يتحدث عن مشروعاته ، أو يقص عليها ما يضحكها ، ومن طريق جانبي في أعلى الوادي كانا يريان السحب البيضاء وهي تنعكس في مرآة البحيرة الساكنة والسفن وهي تسبح كالخشرات التي تطفو فوق مياه بركة صغيرة . وكانا يستنشقان الهواء دافئاً ممزوجاً بالموسيقى التي تنبعث من الأجراس المعلقة برقاب البقر وتحملها الرياح من بعيد من حين لآخر ومعها رائحة الحشائش المقطوعة والأصماغ الدافئة . ويستسلمان معاً لأحلام الماضي ولأحلام المستقبل ولأحلام حاضرهما الذي بدا لهما أجمل الأحلام وألذها سحراً كانت انطوانيت أحياناً تستسلم لمرح شقيقها الصياني فتلهو معه ويجران وراء بعضهما أو يتقاذان الحشائش . وأخيراً رأى أوليفيه شقيقته تضحك ملء فيها كما كانت تفعل في الصغر في عهد الطفولة الذي لا يعبأ بشيء ،

تلك الضحكة التي لم يسمعها منذ سنوات مضت ، والتي تشبه مياه
النبوع في صفائها .

ولكن أوليفيه في أغلب الأحيان كان لا يستطيع أن يقاوم
رغبته في القيام بالرحلات الطويلة ، وبعد عودته منها يشعر بشيء من
تأنيب الضمير . وحدث أن أنب نفسه فيما بعد لأنه لم يستمتع كما كان
ينبغي بالأحاديث الحبيبة إلى نفسه مع شقيقته ، وكثيراً ما كان يتركها
بفرداها في الفندق . وكان هناك ناد يجمع بين الشبان والشابات ظلاً
مبتعدين عنه في أول الأمر . إلا أنه حدث فيما بعد أن انجذب نحوهم
أوليفيه رغم خجله ثم انضم إليهم . كان محروماً من الأصدقاء حتى
ذلك الوقت . ولم يعرف من الأصدقاء فيما عدا شقيقته إلا زملاءه
القطين في اللدسيه وصدقاتهم الذين كانوا يسحبون له النفور . وشعر بشيء
من السعادة لوجوده بين فتيان وفتيات في نفس سنه مؤدبين ، محبوبين
ومرحين . وبالرغم من نفور أوليفيه من الناس فقد كان محباً للاستطلاع
في شيء من السذاجة وكان له قلب عاطفي ذا إحساسات بريئة . ينجذب
لتلك الأضواء الخافتة التي كانت تلمع في أعين النساء المحيطات به .
وكان هو أيضاً يعجبهن على الرغم من خجله . كانت تلك حاجته البريئة
إلى أن يحب ويشعر بأنه محبوب تضي عليه — دون علمه — لونا
من مرح الشباب وتجعله يتكلم ويأتي بحركات وبأعمال محبوبة لا تلبث
ما بها من خجل أن تجعلها أكثر جاذبية . كان جذاباً بطبيعته وبالرغم

من أن ذكاه الذى أصبح حاد السخرية فى وحدته ، أظهر له من سفالة الناس ومن عيوبهم ما يجعله ييغضهم ، بالرغم من ذلك كله كان أوليفيه عندما يتواجد أمامهم لا يرى إلا عيونهم التى تعبر عن نفوس ستموت يوماً ما ، نفوس أشخاص لن يكون لهم إلا حياة واحدة مثله سيفقدونها مثله فى زمن قريب ، حينئذ يشعر نحوهم بعطف غير إرادى ولا يحد فى نفسه القدرة على أن يأتى نحوهم بأى أذى : وسواء أراد أم لم يرد فقد شعر أن عليه أن يكون لطيفاً . كان أوليفيه ضعيفاً وهذا يعجب الناس الذين فى استطاعتهم مغفرة كل الرذائل — وكل الفضائل — فيما عدا واحدة ، ألا وهى القوة وهى أساس كل شيء آخر .

لم تندج انطوانيت فى هذا الجمع من الشباب إذ كانت صحتها المتعبة وانحطاط حالتها المعنوية دون أى سبب ظاهر — كل هذه الأمور مجتمعة كانت تشلها وقد حدث خلال السنين الطويلة التى قضتها وسط المهوم والعمل المضنى ، تلك السنين التى تبلى الجسد والروح ، حدث أن انقلبت الأوضاع وقامت هى بواجب الشقيق ولذا كانت تشعر حينئذ أنها بعيدة عن العالم ، بعيدة عن كل شيء بعداً كبيراً . . . وبأنها لم يعد فى مقدورها أن تعود إليه . إن الأحاديث والوضوء والضحك والمصالح التافهة ، كل ذلك أصبح يضايقها الآن ويتعبها ، وربما يجرح شعورها . إن انطوانيت كانت تتألم لذلك الأمر وكانت تود لو شابهت

الفتيات الأخريات ، وأن تهتم بما يهتمون به تضحك لما يضحكون له . إن ذلك لم يعد في مقدورها ... كانت تشعر بانقباض في القلب ، تشعر وكأنها ماتت . وفي المساء كانت تغلق غرفتها عليها وكثيراً ما كانت تبقى في الظلام دون أن تشعل المصباح . كانت تجلس هكذا بينما أوليفيه في الصالون بالطابق الأسفل يستسلم لحب عارض خيالي . وكان ذلك إحدى الحالات العاطفية التي كثيراً ما كانت تنتابه . ولا تخرج انطوانيت من خمولها إلا عندما تسمع شقيقها يعود إلى الطابق الأعلى وهو يضحك ويثرثر مع صديقاته ويبادلن على باب غرفتهن تحيات الوداع التي لا نهاية لها والتي تحول دون عزمهم على الفراق . وحينئذ كانت انطوانيت تبسم وسط الظلام وتنهض لتوقد المصباح ، إن ضحكة واحدة من أخيها كانت كفيلة بأن تبعث إليها الحياة .

كان الخريف قد اقترب وبدأت الشمس تنطق شيئاً فشيئاً ، والطبيعة تذبل والألوان تفقد زهوتها تحت غيوم ومحب شهر أكتوبر . وسقط الثلج فوق المرتفعات وكسا السهل الضباب . فرحل المسافرون أفراداً ثم جماعات وعمت الكتابة على الجميع لفراق الأصدقاء ، وحتى الغرباء ، ولرحيل فصل الصيف على الأخص ، فصل السكون والسعادة الذي كان كروضة وسط الحياة .

وتنزه الشقيقان سوياً مرة أخيرة ذات يوم من أيام الخريف .

الغائمة وسط غابة على سفح الجبل . ولم يتحدثا . كانا يحملان في تأثر
ويقترب كلاهما من الآخر وهما يرتجفان من البرد وقد التفا في معطفيهما
ورفعا ياقته وسارا متشابهي الأصابع . كانت الخائل الرطبة صامتة
وكأنها تبكي في سكون بينما كانت تأتي من أعماق الغابة صرخات خافتة
وخائفة لطير وحيد شعر باقتراب الشتاء ثم رنين جرس لقطيع يدوى
في الضباب ، بعيداً يكاد لا يسمع وكأنما يدق في أعماق صدورهما .
ثم عادا إلى باريس وهما مكتئبان . ولم تستعد انطوانيت صحتها .

وكان على انطوانيت أن تهتم بما يلزم أوليفيه من ملابس عند عودته إلى المدرسة . فكلفتها ذلك كل ما أدخرته بل أنها باعت حلها سراً . وماذا يهمها ؟ لا شك أنه سيعوضها عن ذلك في المستقبل . . ثم أنه لن يصبح لها مطالب كثيرة بعد أن يرحل أوليفيه . . . كانت تمنع نفسها من التفكير فيما سيحدث لها بعد أن يصبح أوليفيه بعيداً عنها ؛ وأخذت تعمل في تجهيز ملابس شقيقها ، كل ما لديها من حنان وحب نحو أخيها وضعته في هذا العمل الذي أحست أنه آخر شيء تقدمه له .

وأصبحت لا يفرقان في الأيام الأخيرة التي يقضيانها معاً خشية أن تضيع منها لحظة واحدة . وسهراً معاً في الليلة الأخيرة بجانب المدفأة انطوانيت جالسة على الكرسي الوحيد في المنزل وأوليفيه على مقعد صغير تحت أقدام أخته تاركاً إياها تلامفه فقد اعتاد أن يكون معها كالطفل الكبير المدلل . كان مشغول البال ومهماً أيضاً بالحياة الجديدة التي هو مقبل عليها . وخطر لانطوانيت أن ما بينهما من ود عميق قد انتهى وأخذت تتساءل في فزع عما عساه يحدث لها . وكأنما أراد أوليفيه أن يزيد من آلامها فأبدى في هذه الليلة من الحنان ما لم يبدئه أبداً ، تماماً كما يفعل أولئك الذين ينتظرون ساعة الرحيل ليظهروا في دلال يرى أحسن ما في نفوسهم وأرقه . وجلس أمام البيانو

وأخذ يعزف طويلاً أنغام موزار وجلوك التى كانا يعشقانها أكثر من غيرها ؛ تلك الأنغام التى تصور لمحات من السعادة والحنان كما تصور من صفاء النفس الحزينة والتى كثيراً ما اختلطت بأحداث حياتهما الماضية .

وحانت ساعة الفراق وراققت انطوانيت أخاها حتى باب المدرسة ثم عادت إلى المنزل لتجد نفسها وحيدة مرة أخرى . ولقد تغير الحال الآن عما كان عليه أثناء رحلتها إلى ألمانيا ، إذ لم يعد فى استطاعتها أن تضع لنفسها حداً للفراق إذا لم تتحمله . أما هذه المرة فبقيت هى ورحل أوليفيه ، إلى أمد بعيد — رحل لمدى الحياة . ولقد كانت تشعر نحو أخيها بحنان الأمومة لدرجة جعلتها تفكر فى أخيها فى أول لحظات الفراق أكثر مما تفكر فى نفسها . وشغلت نفسها بتلك الأيام الأولى من حياته الجديدة التى اختلفت تماماً عن حياته السابقة . وأخذت تفكر فى الأعياب تلاميذ تلك المدرسة وفى هذه المضايقات البسيطة التى كثيراً ما تتخذ أشكالاً مخيفة فى أذهان أولئك الذين يعيشون فى الوحدة والذين تعودوا — مثل انطوانيت — أن يعذبوا أنفسهم بالتفكير فىمن يحبون . ولو أن هذا الانشغال قد عاد عليها بفائدة إذ خفف بعض الشيء من وحدتها . وسرعان ما فكرت فى نصف الساعة التى سترى شقيقها خلالها فى اليوم التالى فى قاعة استقبال المدرسة . ووصلت إلى هناك قبل موعدها بربع ساعة . وكان أوليفيه

لطيفاً معها غير أنه كان مشغولاً ومسروراً بما رآه من حياته الجديدة .
وعادت لزيارته في الأيام التالية وهي تفيض حباً وقلقاً عليه . وزداد التباين
بينهما على مقدار اهتمام كل منهما بتلك اللحظات التي يلتقيان فيها .
كانت تلك اللحظات بالنسبة لآنطوانيت كل شيء في الحياة . أما أوليفيه
فإن كان يحب أخته إلا أن أحداً لا يستطيع أن يطالبه بأن يفكر في
أخته وحدها . ولقد حدث مرة أو مرتين أن جاء متأخراً إلى قاعة
الاستقبال ولما سأله في أحد الأيام إن كان يتضايق أجبها بالنفي .
كانت تلك الأشياء كضربات خفيفة من خنجر تسدد نحو قلب
آنطوانيت . وعانت نفسها على هذه الحساسية من ناحيتها واعتبرت نفسها
أنانية ، كانت تعلم جيداً أن عدم استطاعته الاستغناء عنها وعدم استطاعتها
الاستغناء عنه وألا يكن لها من هدف غيره في الحياة ، شيء لا يعقل ،
بل أمر سيء مخالف للطبيعة . نعم كانت تعرف كل ذلك ولكن ماذا
تفيدها تلك المعرفة ؟ أنها لا تقوى على شيء ، ما دامت قد وهبت كل
حياتها منذ عشر سنوات للتفكير في شيء واحد : في أخيها . والآن
وقد انتزع منها الشيء الوحيد الذي يهيمها في الحياة ، أصبحت لا تملك
شيئاً .

وحاولت بكل شجاعتها أن تشغل نفسها بأعمالها ، بالقراءة ،
بالموسيقى ، بالكتب الحبيبة إلى نفسها . . يا إلهي ! إن شكسبير ،
إن يتهوفن أصبحا لا معنى لها بعد أن أصبحت بغير أخيها . . .

نعم كان كل منهما شيئاً جميلاً ولا شك .. ولكن لم يعد هناك أوليفيه !
وما فائدة الأشياء الجميلة إذا لم تراها عيون الإنسان الحبيب ؟ وماذا
تفعل بالجمال ، بل وماذا تفعل بالهناء إذا لم نشعر بهما في قلب من يحب ؟

ليتها كانت تملك من القوة ما تستطيع به أن تغير مجرى حياتها
نحو هدف آخر . ولكنها كانت منهكة . الآن بعد إن لم يعد هناك
ما يضطرها إلى المقاومة ، مهما كلفها ذلك من مشاق ، تحطم المجهود
الذي فرضته إرادتها عليها وانهارت هي الأخرى . وعندئذ وجد
المرض أرضاً خصبة في جسدها الذي كان مستعداً له منذ أكثر من
عام ، بينما كانت من قبل تتغلب على هذا المرض بنشاطها .

وأخذت تقضى لياليها في المنزل وحيدة ، مستسلمة لهماومها وهي
جالسة إلى المدفأة المطفأة . فلم تكن تملك الشجاعة لتشعل نارها مرة
أخرى ، كما لم تكن تملك مجرد القوة التي تساعد على الذهاب إلى
الفراش ، فتظل جالسة ترتعد من البرد حتى منتصف الليل مستسلمة
للنعاس والأحلام ، وتبدأ فقتستعيد ذكريات حياتها مع من فارقهم ،
مع أوهامها التي تبددت ، وتشعر حينئذ بحزن شديد على شبابها الذي
ولى بغير حب ، وتشعر بألم لا تعرف مصدره أو لا تريد الاعتراف
به وهي تشعر به كلما تنأى إلى سمعها ضحكة طفل يمر بالطريق ..
أو وقع خطواته المتزدة في الدور الأسفل من المنزل . . بأقدامه
الصغيرة التي كانت تمشي فوق قلبها ووقعت فريسة للشكوك ،

للافكار الشريرة ، فريسة للانانية التي انتقلت عدواها من هذه المدينة
اللاهية إلى روحها التي بدأ الضعف يسرى فيها ، كانت تحارب الندم
وتخجل من رغباتها ولم تكن تفهم سبباً لما يعترها من عذاب ، وإن
كانت ترجع ذلك إلى الغرائز الشريرة . أن دأفيليا ، الصغيرة المسكينة
التي وقعت بين برائن الشر المجهول ، أخذت تشعر بالفرع من هذه
العاصفة المضطربة التي تصعد من أعماق نفسها ، من أعماق الحياة . .
ولم تعد تعمل شيئاً . هجرت معظم دروسها ، هي التي كانت تستيقظ
مبكرة ، أصبحت لا تغادر سريرها قبل الظهيرة أحياناً ، بل أصبح سواء
لديها أن تنام أو تستيقظ ، لم تعد تأكل إلا ما يقيم أودها أو لا تأكل
على الإطلاق ، إلا أنها بعد ظهر كل خميس ومنذ صباح كل يوم أحد .
عندما يحصل أخوها على أجازة ، كانت تحاول أن تبدو معه ، كما كانت
في الماضي . .

ولم يلاحظ أوليفيه شيئاً . فقد أعجبه حياته الجديدة أو هي اجتذبت
لدرجة جعلته لا يلتفت كثيراً إلى أخته . كان يمر بفترة من فترات
الشباب التي لا ييوح فيها الشاب بما في نفسه بسهولة والتي يبدو فيها
غير مكترث لأشياء قد تأثر بها في الماضي وإن ظهرت أهميتها فيما بعد .
والمتقدمون في العمر كثيراً ما تظهر لديهم مشاعر أنصر من شباب في
العشرين كما يتمتعون في برامة بمباهج الطبيعة والحياة أكثر منهم ، وحيث
يقال أن قلوب الشباب أقل حيوية وأكثر فتوراً ، وهو قول كثير أماً لا يكون

صحيحاً ، والواقع أن تظاهروهم بعدم الاكتراث لا يعنى الفتور وإنما يعنى أن نفوسهم تكون ملكاً للعواطف والآمال والرغبات والأفكار التى يتمسكون بها . وعندما يبلى الجسد وتخلو الحياة من مطامعها ، تعود الأحاسيس المجردة من الشهوات إلى الظهور من جديد . ولقد كان أوليفيه مشغولاً بكثير من هذه الأشياء الصغيرة ، كان أهم تلك المشاكل عنده حب صغير لا معنى له . وكان دائماً الإنشغال بأمثال هذه العاطفة التى تملك عليه نفسه فتحوله إلى أعمى وتحول بينه وبين كل شيء آخر فى الحياة . ولم تكن انطوانيت تعلم شيئاً عما يدور بخلد أوليفيه . كل ما لاحظته أن أخاها بدأ يبتعد عنها ، ولم يكن هو مسئولاً كل المسئولية عن ذلك . فأحياناً — بينما يكون فى طريقه إلى زيارة أخته — كان يشعر بشوق شديد إلى أن يراها ويتحدث إليها ، ولكنه كان — بمجرد أن يدخل للقائها — يشعر بالبرودة تسرى إليه . أن الحب القلق ، والحرارة التى كانت تدفعها إلى التعلق به وإلى امتصاص كلماته وإلى أن تغمره بعنايتها ... ثم أن إفراطها فى العاطفة ، واهتمامها الزائد بأمره ، كل هذه الأشياء سرعان ما كانت تفقده كل رغبة فى الإفضاء بما فى نفسه . وكان يجب عليه أن يفهم أن انطوانيت لم تكن فى حالتها الطبيعية ، ولم يكن هناك شيء أبعد من هذا السلوك عن رزانتهاورقتها المعتادة ، إلا أنه لم يفكر فى ذلك أبداً . كان يقابل أسئلة أخته بنعم أو لا ، وكان يقاوم فى عناء كلما حاولت أن تخرجه من صمته ، بل أنه كان يجرحها بإجاباته القاطعة ، فتلوذ بالصمت وهى تشعر بالحسرة

فى قرارة نفسها، ويمر يومها . . لأنه يوم آخر يضع منها . وما يكاد أوليفيه يغادر البيت ليعود إلى المدرسة حتى يشعر بضميره يؤنبه بسلوكه مع أخته . وفى الليل كان يتعذب عندما يفكر فيما أحدثه لها من ألم، بل كان يحدث — بمجرد عودته إلى المدرسة — أن يشرع فى كتابة رسالة تفيض عاطفية ولكنه كان يمزقها بمجرد أن يعود لقراءتها فى اليوم التالى . أما انطوائيت فلم تكن تعلم من ذلك شيئاً . . كانت تعتقد أن أباها لم يعد يحبها .

ومرة أخرى حدث انطوائيت أن شعرت بآخر بادرة من عواطف الشباب — وإن لم تكن تلك آخر فرصة لها — ونهض قلبها في يقظة يائسة ، يقظة عاطفة قوية من الحب والأمل في السعادة . وعلى أى حال فإن عقلها كان يرفض ذلك لأنه يختلف مع طبيعتها الهادئة كل الاختلاف . وكان لا بد لها — لكي تمر بهذه التجربة العاطفية — من هذا الاضطراب الذى تعيش فيه وهذه الحالة من الذهول والإثارة التى تنذر بوقوع الشر .

وذهبت انطوائيت مرة مع أخيها لحضور إحدى حفلات شاتليه الموسيقية ، ولما كانت إحدى المجلات الصغيرة قد كلفت أوليفيه بعمل النقد الموسيقي لليلة ، فقد أجلس هو وأخته فى أماكن أحسن من التى كانا يجلسان فيها من قبل ، وإن كان الجمهور حولهما أشد سخافة من الجمهور الأول ، أجلسا على كرسيين بالقرب من المسرح . وكان على كريستوف كرافت ، أن يعزف فى تلك الليلة . ما كانا يعرفان هذا الموسيقار الألمانى وما أن بدا أمام عيني انطوائيت ، حتى شعرت بالدماء تندفق إلى قلبها ، وبالرغم من أن عينيها المتعبتين لم تراه إلا من خلال غلالة من الضباب فلم يكن لديها أدنى شك ، فجرد دخوله عرفت فيه الصديق المجهول ، صديق أيامها التسعة فى ألمانيا : لم تكن قد تحدثت

عنه أبداً إلى أخيها فقد كانت تجد صعوبة في أن تتحدث عنه حتى إلى نفسها . ومنذ ذلك الوقت ومشغل الحياة تحتل كل تفكيرها . ثم أنها كانت من ذلك النوع من الفرنسيات الصغيرات العاقلات اللاتي يرفضن العواطف الغامضة التي لا يعرفن مصدرها والتي لا مستقبل لها . وكان لها في أعماق حياتها الروحية المجهولة مخبأ ؛ رقدت فيه عواطف أخرى كثيرة ربما خجلت من رؤيتها ، كانت تعلم جيداً أنها موجودة ولكنها كانت تحول نظرها عنها نتيجة لخوفها الديني من هذا الخالق المجهول الذي لا يمكن للتفكير البشري أن يحيط به .

ولما أفادت قليلاً من اضطرابها استعارت من أخيها منظاره لتشاهد كريستوف . كانت ترى وجهه من ناحية جانبيه وهو واقف في مكان قيادة الأوركستر وعرفت تعبيرات وجهه الفنية المركزة . كان يرتدى ملابس قديمة لا تناسبه إطلاقاً . وتابعت انطوانيت وكأنما تجمدت في صمتها ، تابعت مشاهدة تطورات هذه الحفلة الموسيقية التي تستحق الرثاء والتي عرض كريستوف فيها نفسه للاحتكاك بجمهور أساء استقباله إساءة ساخرة ، هذا الجمهور الذي لم يكن معداً لهؤلاء الفنانين الألمان . ولذلك فقد أجهزت عليه موسيقى كريستوف . بعد أن عزف إحدى السمفونيات التي بدت طويلة عاد فظهر ليعزف بعض الألحان على البيانو ، وهنا قوطع بعبارات من الاستهجان لم تدع مجالاً للشك في عدم ارتياح الجمهور لرؤيته مرة أخرى ، ومع ذلك فقد بدأ العزف

أمام الجمهور المتضايق الذى لا حول له وبدأت الملاحظات الجارحة تسرى بين جمهور المقاعد الخلفية فتشر المرح فى الصالة . وهنا توقف كريستوف عن عزفه وفى عناد الشباب الذى لا يبالى بالخطأ أخذ يعزف بأصبع واحدة لحن أغنية (ما لبروغ ذاهب إلى الحرب) (١) . ثم غادر البيانو ليقول للجمهور : هذا ما ... يناسبكم ...

ومرت لحظة على الجمهور لم يدرك فيها مقصد كريستوف لأول وهلة ، ثم انطلقت الصرخات وتلا ذلك مشهد لا يمكن تصويره من الضجيج والصفير . وأخذ الكل يصيح ويصرخ : —
— يجب أن يعتذر ! .. هاتوه ليعتذر ! ..

وغلث الدماء فى وجوه الناس وهم يستثيرون بعضهم ، وبدأوا يقتنعون بأنهم أهينوا حقاً وربما كانوا مقتنعين بذلك ، إلا أنهم اتهموا الفرصة ليتبادوا فى إحداث الضجيج كما يفعل تلاميذ المدارس بعد أن يمضوا ساعتين فى الفصول .

ولم تكن انطوانيت تملك القوة لتتحرك ، كانت كالمذهولة ، وتقلصت أصابعها على قفازها فزقته بحركة خفية . فنذ بدأت الانغام الأولى للسفوفيه تنبأت بما سيحدث ، كانت تتوقع من الجماهير هذا العداء الصامت وتشعر به وهو ينمو شيئاً فشيئاً .. وكانت تقرأ على وجه كريستوف أنه لن يذهب بلحنه إلى النهاية دون أن يحدث

(١) أغنية شعبية فرنسية .

انفجار ما . وانتظرت هذا الانفجار وهى تشعر بالاضطراب المتزايد ، وأخذت تجمع قواها لمنع هذا الانفجار لكنه وقع وحدث بالضبط كما كانت تتوقعه . فشعرت معه بأن يد القدر تسحقها فلا تستطيع لها ردا . وبينما هى لا تكف عن النظر إلى كريستوف الذى يخلق بتحد فى الجماهير النائرة التقت نظراتهما . ومن الجائز أن كريستوف قد عرفها بعينه إلا أنه لم يستطع أن يتوقف عليها بذهنه وسط العاصفة الهائجة (فهو لم يعد يفكر فيها) واختفى وسط سيل من الصغير .

وودت لو تصرخ ، لو تقول أى شيء لكنها كانت تشعر بأنها مقيدة كما لو كانت فى كابوس . وخفف من ألمها أن سمعت صوت أخيها الذى لم يدرك ما كان يدور داخل نفسها والذى شاركها ألمها واحتقارها للجماهير . كان أوليفيه موسيقيا أصيلا ذا ذوق حر لم يستطع شيء أن ينال منه ، فهو إذا أحب شيئا أحبه حتى لو خالفه الناس جميعا . وما كاد يسمع النغمات الأولى من السمفونية حتى أدرك أن هناك شيئا عظيما لم تألفه حياته أبدا من قبل . وأخذ يردد بصوت خافت ولكن بحماسة بالغة :

— كم هى رائعة هذه الموسيقى ، كم هى رائعة .

بينما أخته تقترب منه بطريقة لا إرادية كأنما لتشكره على ما يديه.

من ملاحظات، وما كادت السمفونية تأتي على آخرها حتى أخذ أوليفيه يصفق تصفيقاً حاداً احتجاجاً على عدم اكتراث الجماهير وسخريتهم.

ولما حدثت الضجة الكبرى خرج أوليفيه عن شعوره وهب هذا الشاب الخجول واقفاً وأخذ يصرخ معلناً أن كريستوف على حق وأخذ يخاطب في عنف الذين يطلقون الصغير كأنما يريد أن يتشاجر معهم . ولكن صوته ضاع وسط الضجيج . وهكذا جعل الناس يردون عليه بألفاظ بذية ووصفوه بالحق ونصحوه بأن يذهب لينام . ولما كانت انطوانيت تعلم ألا جدوى من تمرد شقيقها على الجمهور فقد شدت أوليفيه من ذراعه وهي تقول :

— أسكت أرجوك... أسكت .

فعاد إلى الجلوس يائساً ، وهو ما زال يزجر قائلاً :

— يا للعار... يا للعار... يا للساكن .

أما هي فلم تقل شيئاً .. كانت تتألم في صمت حتى ظن أوليفيه أنها لا تشعر بجمال هذه الموسيقى . فقال لها :

— انطوانيت ، ألا تجد أن هذه الموسيقى جميلة ؟

وأومأت برأسها أن نعم . وظلت جامدة لم تستطع أن تعود

إلى طبيعتها ، ولكن عندما شرعت الأوركستر في عزف مقطوعة أخرى ، قامت فجأة من مكانها وهي تهمس لأخيها برنة لا تخلو من الكراهية .

— هيا ، هيا ، إنى لم أعد أستطع رؤية هؤلاء الناس .

وفادرا المكان مسرعين . وفي الطريق كان أوليفيه يتأبط ذراع أخته وهو يتكلم بحدة ، أما انطوانيت فسارت صامتة .

وقضت انطوانيت الأيام التالية وحيدة في غرفتها . وألقت بنفسها
في عاطفة كانت تحاول أن تتجنبها ، إلا أنها كانت تلح عليها من خلال
أفكارها جميعا كأنها طرقات الدماء تدق رأسها فتحدث لها الألم .

ومضت فترة أتاها أوليفيه بعدها بكتيب يحتوي على مجموعة
من ألحان كريستوف اكتشفه أخيراً عند أحد الناشرين . وفتحته
مصادفة وما كاد بصرها يقع على أول صحيفة منه حتى وجدت نفسها
تقرأ على رأس إحدى المقطوعات إهداء مكتوباً بالألمانية :

« إلى ضحيتي الصغيرة الحبيبة المسكينة » .

وذيل هذا الإهداء بتاريخ .

كانت انطوانيت تعرف جيداً هذا التاريخ — وهنا اضطربت
لدرجة لم تستطع معها أن تواصل القراءة . وتركزت الكتيب ثم انصرفت
إلى غرفتها بعد أن توسلت إلى أخيها أن يقوم بالعزف على البيانو .
وأغلقت عليها باب غرفتها وبدأ أوليفيه ، الذي استهوته هذه الموسيقى
الجديدة ، بدأ يعزف دون أن يلاحظ التأثير الذي طرأ على أخته .
وجلست انطوانيت في غرفتها المجاورة لغرفة أوليفيه تحاول أن تسيطر
على ضربات قلبها ونفجاة قامت من مكانها وأخذت تنفث في دولاب
حلابسها عن دفتر صغير كانت تقيد فيه مصروفاتها وبحث عن تاريخ

مغادرتها لألمانيا لتقارنه بهذا التاريخ الغامض . لقد كانت تعرفه من قبل . نعم ، كان ذلك ليلة العرض التي حضرتها مع كريستوف . واستلقت على سريرها وأغمضت عينيها وقد شعرت بشيء من الخجل ، وضغطت يدها على صدرها وأخذت تستمع إلى الموسيقى الحية . كان قلبها ينبض بالعرقان .. ولكن ما لها تشعر بهذه الآلام في رأسها ؟

ولما رأى أوليفيه أن أخته لزمت غرقها انتهى من عزفه ودخل إليها ليجدها مستلقية على سريرها . وسألها إن كان هناك شيء يؤلمها فأجابت أنه مجرد تعب بسيط ثم قامت لتجلس معه . وأخذا يتحدثان إلا أن انطوانيت لم تحب بسرعة على أسئلة أخيها . كانت كأنما تعود من مكان بعيد ، ثم ابتسمت وبدت عليها حمرة الخجل واعتذرت بأن صداعا شديدا يكاد يحطم رأسها ، وأخيرا خرج أوليفيه ، وقد طلبت منه أن يترك لها دقترالحن . وظلت طويلا في الليل بمفردها جالسة على البيانو تقرأ الألحان دون عزفها ، تلمس في خفة بين حين وحين أحد أصابع البيانو في هدوء شديد ، خشية إزعاج جيرانها وتذمرهم ، ولم تقرأ طويلا بل استمرت أغلب الوقت يتملكها دافع عرفان الجميل والحنان لهذه النفس التي عطفت عليها فقد قرأ في نفسها بما لطية القلب من إدراك عجيب خفي ، ولم تستطع انطوانيت أن تركز أفكارها . وكانت تشعر بالسعادة والبؤس في آن واحد . بائسة .. آه ! كم كانه يؤلمها صداع رأسها ! .

وقضت ليلتها وسط أحلام مؤلمة وكآبة مضنية . وفي الصباح أرادت أن تخرج قليلا لكي تقاوم حالة الخمود التي تملكها ، ولكي تجعل لخروجها هدفاً ، ذهبت — رغم استمرار الآلام في رأسها — لبعض المشتروات من أحد المحال الكبيرة ولم تكن تفكر قط فيما تفعل . كانت تفكر في كريستوف دون أن تعترف لنفسها بذلك ، وبينما هي خارجة وسط الإزدحام ، متعبة وتكاد تموت حزناً ، رأت كريستوف يمر على الرصيف على الجانب الآخر من الشارع . وهنا رآها كريستوف في نفس اللحظة . وفي الحال (ودون تفكير) مدت انطوانيت يدها إليه ، وتوقف كريستوف عن السير . فقد عرفها هذه المرة ، وبينما هو يندفع وسط الطريق ليتجه نحو انطوانيت ، بينما هي تحاول أن تذهب للقائه إذا بأفواج الناس المتزاحمة تتقاذفها في عنف كما لو كانت عوداً من القش . ويعترض الطريق حصان يجر سيارة ركاب ، يسقط على الشارع المزلق فيقيم سداً أمام كريستوف تجمععت عنده في الحال صفتين من العربات محدثة لبضع لحظات حاجزاً لا يمكن اختراقه . ورغم ذلك كله صمم كريستوف أن يمر ، ولكنه وجد نفسه وسط العربات لا يمكنه التقدم أو التراجع وعندما نجح أخيراً في التخلص من هذا الازدحام وفي الوصول إلى المسكان الذي كان قد رأى فيه انطوانيت ، كانت الفتاة قد ابتعدت كثيراً . فقد حاولت عبثاً أن تقاوم هذا السيل البشري ، ثم استسلمت لأمرها ولم تحاول الجهاد بعد .

فقد انتابها الشعور بأن هناك قدر جاثم عليها يعارض مقابلتها مع كريستوف ، وما من قوة تستطيع شيئاً أمام القدر . ولما نجحت في الخروج من وسط الجموع لم تحاول أن تعود أدراجها . فقد تملكها الحجل . ماذا تجرؤ أن تقوله له ؟ وماذا جسرت أن تفعل ؟ وما عساه ظن بها ؟ وعندئذ فرت عائدة إلى منزلها .

ولم تشعر بالطمأنينة حتى وصلت إلى دارها . ولكن عندما دخلت حجرتها ظلت جالسة في الظلام أمام المنضدة دون أن تقوى على خلع قبعتها وقفازاها . كانت بائسة لأنها لم تستطع التحدث إليه وفي الآن نفسه كان هناك ضوء ينير قلبها فلم تعد ترى الظلام ، ولم تشعر بالآلم الذى كانت تعانيه . واستمرت تستعيد في خيالها كل تفاصيل هذا المشهد الذى وقع ، وتغيره ، فتخيل ما كان يحدث لو أن الظروف تغيرت . وترى نفسها وهى تمد ذراعها لكريستوف ، ثم ترى عبارات الفرح ترسم على وجه كريستوف عندما تعرف عليها فتضحك وتحمر خجلاً . تحمر خجلاً ، وفي ظلام الحجرة حيث لا يمكن لأحد أن يراها وهى وحدها مدت إليه ذراعها مرة أخرى . آه ! إن هذا الشعور كان أقوى منها ، كانت تشعر أنها راحلة ، فتحاول ، بالفرصة ، أن تتعلق بهذه الحياة القوية التى تحف بها . والتى بعثت إليها بنظرة تملؤها المحبة . أما قلبها الملى بالحنان والفرح فكان يناديه فى الليل بقوله :

— أنجذنى ! أنجذنى !

وقامت انطوانيت لتشعل المصباح ولتأخذ ورقة وقلماً ، وكنبت
لكريستوف . ولم تكن لتفكر أبداً هذه الفتاة الخجول المترفة أن
تكتب إليه لولا أنها كانت فريسة للمرض . ولم تكن تدرك ماتكتبه .
إذ أنها قد فقدت السيطرة على نفسها فكانت تناديه وتبوح له بحبها ،
ولكنها توقفت وسط الخطاب مفزعة وأرادت أن تعيد كتابة الخطاب ،
ولكن مجهودها قد تحطم وكان رأسها خاوياً ، مرتفع الحرارة .
ووجدت صعوبة هائلة في إيجاد الكلمات إذ أن التعب كان يضفيها .
وكانت خجولة ... ثم ما فائدة كل هذا ؟ فهي تعلم جيداً أنها تغش نفسها
وأنها لن ترسل هذا الخطاب أبداً . . . حتى لو أنها أرادت فكيف
توصله إليه ، فهي لا تعرف عنوان كريستوف ! وماذا يمكنه أن يعمل
لها حتى إذا علم بكل شيء . ورغم ما يمكنه من طيبة نحوها ؟ قد فات
الآوان الا ، لا ، لا ، إن كل ذلك عبث ، إنها محاولة أخيرة لطير يختنق
ويخفق بجناحيه في جنون .. عليها أن تستسلم ...

وظلت طويلاً أمام منضدتها مستغرقة في أفكارها غير قادرة أن
تنزع نفسها من سكونها . وكان الليل قد انتصف عندما قامت بعناء
وبشجاعة ، ووضعت ، كما تعودت دائماً ، مسودة خطابها داخل
كتاب في مكتبتها الصغيرة ، إذ لم تقو على ترتيبها أو تزيينها . ونامت
وهي ترتعد من الحمى .

إن سر هذه المحاولة بدأ ينكشف ، وشعرت انطوانيت أن إرادة
الرب تم . وإذا براحة كبيرة تغمرها .

وعاد أوليفيه من المدرسة صبيحة يوم الأحد ليجد انطوانيت
طريحة الفراش وقد بدأ عليها شيء من الهذيان . وجاء الطبيب فقرر
أنها أصيبت بنزحة صدرية حادة .

وكانت انطوانيت في الأيام السابقة قد بدأت تدرك مدى خطورة
هذه الحالة ، واكتشفت أخيرا سبب ذلك الاضطراب المعنوي الذي
كان يلامها ، كانت المسكينة تخجل من نفسها ، لما يمر بها من هواجس ،
لكنها شعرت بارتياح عندما أدركت أن المرض هو الذى سبب لها
تلك الاضطرابات النفسية ووجدت أن لديها المقدرة على اتخاذ بعض
الاحتياطات ، فأشعلت النار في أوراقها وكتبت رسالة لمـدام ناتان
ترجوها فيها أن تقبل الإشراف على أخيها في الأسابيع الأولى بعد
موتها . (وهذه الكلمة لم تجرؤ على كتابتها) .

وعجز الطبيب أن يفعل شيئا ، فالمرض كان بالغ الخطورة ، وسنوات
التعب الطويلة كانت قد أنهكت قواها — إلا أنها ظلت هادئة ، فنذ
شعرت أنها تقترب من النهاية تخلصت من مخاوفها ، وأخذت تستعرض
في ذاكرتها كل التجارب التى مرت بها وتستعيد في نفسها كيف
أتمت رسالتها وكيف أنقذت حبيبها أوليفيه وكان يغمرها حينئذ نوع
من السرور لا يوصف . لقد كانت تحدث نفسها :

— أنا التي صنعت هذا .

ثم تعود فتلوم نفسها ، إذ تشعر بشيء من الكبرياء فتقول :
— لو كنت وحدي لما استطعت شيئاً أبداً ، إن الله كان معي .

وتشكر الله الذي منحها الحياة حتى تمت مهمتها . وكان قلبها ينقبض
لشعورها بأن عليها أن ترحل ، لكنها لا تجرؤ على التذمر خشية
أن تبدو ناكرة للجميل أمام خالقها الذي كان في استطاعته أن يصطفياها
إلى جواره قبل ذلك بكثير . ترى ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنها
رحلت منذ عام مضى ؟

وتهدت عندما تذكرت ذلك ، وخضعت لإرادة الله شاكرة جميله .
وبالرغم من الضيق الذي كان يعترها لم تكن تشكوا أبداً إلا حينما
تستغرق في نوم عميق تنخله كطفل صغير . كانت تنظر إلى الناس
والأشياء بابتسامة مستسلة وكانت مجرد رؤيتها لأوليفيه تسبب لها
فرحاً دائماً . كانت تحرك شفيتها وهي تناديه دون أن تنطق باسمه .
وتطلب منه أن يضع رأسه بجانبها على الوسادة وتثبت عينيها في عينيه ،
وتنظر إليه طويلاً في صمت ، وأخيراً كانت تقوم لتضع رأسه بين يديها
وتقول له :

— آه يا أوليفيه ... أوليفيه ...

وتتزعج من حول جيدها سلسلة في آخرها أيقونة وتطوق بها عنق
(١١٢ — انطوائيت)

أخيها . وأوصت الجميع بأخيها خيراً .. قسيبها الذى تعترف له ،
وطيبها ، وكل من تعرفه . كان واضحاً أنها لم تعد تعيش إلا من خلال
حياة أخيها وأنها — وهى على وشك الموت — كانت تلجأ إلى هذه
الحياة ، كما لو كانت آخر جزيرة تأوى إليها . وكانت تأخذها أحياناً
نشوة صوفية من الإيمان والحنان ، فلا تعود تشعر بآلامها ويتحول
الحزن لديها إلى سرور ، سرور إلهى كان يظهر كالنور فى عينيها وعلى
فها وهى تردد قائلة :
— أنا سعيدة .

ويسيطر عليها نوع من الفتور . كانت فى لحظاتها الأخيرة قبل
أن تفقد وعيها — تحرك شفتيها فيعرف أنها كانت تنلوشينا . ويقترب
أوليفيه من فراشها ويميل نحوها . كانت ما تزال تعرفه ، فتبتسم له ابتسامة
خفيفة وتظل شفثاها تتحركان بينما عيناها مغروقتان بالدموع ، حينئذ
لا يستطيع أحد أن يسمع ما تريد أن تقول ، ولكن أوليفيه يستطيع
أن يلتقط من فها همسا لكلمات أغنية قديمة طالما أجاها ، وطالما
غنتها هى له .

« ساعدوا أيها المحبوب ، ساعدوا .. »

وهنا عاد إليها إغماؤها رحلت .

كانت انطوانيت — دون أن تدري — قد أنشأت مع الكثيرين من الغرباء صلة من الود العميق ، وهذا حدث لها في المنزل الذى كانت تسكنه على الرغم من جهلها مجرد أسماء جيرانها فيه . وهكذا تلقى أوليفيه من أناس لا يعرفهم كثيراً من دلائل المواساة . ولم يكن موكب جنازة انطوانيت مهجوراً كما حدث لجنازة أمها . بل تبعها كثيرون إلى مقرها الأخير ، كانوا من الأصدقاء أو من زملاء أوليفيه أو من الأسر التى عرفتها انطوانيت عن طريق إعطاء الدروس ، أو كانوا مجرد أناس مرت بهم ضامته دون أن تخبرهم هى بشئ عن حياتها ودون أن يحاولوا هم أن يعرفوا شيئاً ، وإن كانوا معجبين سرراً بثقافتها . وشيئاً كذلك بعض الفقراء ، والخدم الذين كانت تقوم بمساعدتهم ، وبعض صغار التجار فى الحى . أما أوليفيه فقد اصططحته حدام ناتان ليلة وفاة أخته — رغباً منه — إلى منزلها . وبهذا اقترعته عنوة من بين أحزانه .

كانت تلك هى الفترة الوحيدة فى حياته التى يستطيع فيها أن يقاوم مصيبة كهذه الفترة الوحيدة التى لم يسمح له فيها بأن يستسلم ليأسه استسلاماً كاملاً . كان أوليفيه قد بدأ صفحة جديدة من حياته وبالرغم من مصيبته فقد سار مع التيار كواحد من أفراد مجتمعه الصغير . كانت أعماله ومشاعله مدرسته وحى تفكيره الذهنى ونفضاله من أجل الحياة ،

كل هاتيك كانت تمنعه من أن ينطوى على نفسه ، لم يكن يستطيع
الانفراد بنفسه ، كان ذلك يؤله ولكن كان فيه إنقاذ له . ولو كان
موت انطوانيت قد حدث قبل ذلك العام أو بعده بأعوام لكان فيه
نهاية أوليفيه .

ومع ذلك فقد اختلى بنفسه مع ذكرى أخته ما استطاع وتألم لأنه
لم يستطيع الاحتفاظ بالمسكن الذى عاش فيه مع شقيقته فلم يكن يملك
من المال ما يسمح له بذلك . وكان يأمل من الذين يبدون اهتمامهم به
أن يقدروا مبلغ حزنه ، لأنه لا يستطيع الإبقاء على ما يختص بشقيقته ،
ولكن أحدا لم يكن ليقدر موقفه ، واستأجر غرفة سطح من مال
استدان بعضه وجمع البعض الآخر من إعطاء الدروس . وفى هذه
الغرفة كس كل ما استطاع الاحتفاظ به من أساس أخته : سريرها ،
طاولتها ، المقعد الكبير الذى كانت تجلس عليه . وجعل من ذكرياته
محراباً كان يلجأ إليه كلما اشتد الحزن به . وظن أصدقاؤه أنه على علاقة
غرامية على حين أنه كان يمكث فى غرفته ساعات طويلة . وقد احتوى
رأسه بين يديه . وهو يعلم بأخته فقد كان من سوء حظه ، ألا يكون
لديه أية صورة لها ، إلا صورة فوتوغرافية صغيرة وهى فى سن
الطفولة ، أخذت لها وهى بجانبه . كان أوليفيه يتحدث إلى الصورة
ويكى .. أين صاحبها الآن ؟ آه . . . حتى لو كان فى الطرف الآخر
من الدنيا ، أينما كان مكانها ومهما كان الوصول إليها صعبا ، فكأن كان

يسعده أن ينطلق باحثاً عنها بحماس لا يقهر ، مهما كلفه السعى في سبيلها ،
حينئذ يكون على استعداد لأن يسير حافى القدمين مئات من السنين ،
إذا كانت كل خطوة تقربه من شقيقته ! .. نعم كان على استعداد لذلك
ولو كان أملاً في الوصول إلى أخته ضعيفاً إلى حد بعيد ! لكن لا أمل ..
فلم تكن هناك وسيلة للوصول إليها أبداً . . . باللوحة التي أصبح يعيش
فيها . . . وماله أصبح عديم الحيلة هكذا كالطفل الصغير تلعب به أمواج
الحياة ، الآن بعد أن لم تعد له أخت تحبه وتنصحه وتواسيه . إن من
يشاء له الحظ ، ولو مرة في الحياة ، أن يعرف لفظة قلب صديق ،
لفظة تامة لا حدود لها فقد عرف أسمى سعادة في الحياة ، إلا أنها
سعادة ستجعله يعيش طيلة عمره شقياً .

وليس هناك أقسى على النفس من أن يتذكر الإنسان — وهو
في غمرة شقائه — أياماً سعيدة مرت به . . . وأكبر كارثة بالنسبة
للنفوس الضعيفة الرقيقة أن تكون قد عرفت السعادة الكاملة مرة
في حياتها ، ولكن مهما يكن الألم الذي يفجع الإنسان وهو في مستقبل
عمره في عزيز لديه ، فإن ذلك يكون أخف وقعاً على النفس مما لو حدث
في سن متأخرة بعد أن تكون الحياة قد نضبت معينها . كان أوليفيه
حمازاً صغيراً ، وبالرغم من ميله الفطري إلى التشاؤم وبالرغم من
سوء الحظ الذي لازمه ، فقد كان في حاجة إلى أن يعيش . ويبدو
أن انطوائيت وهى تودع الحياة قد بثت شيئاً من روحها في نفس

أخيها . أما أوليفيه فقد آمن بهذه الحقيقة ، وهو وإن لم يكن مؤمناً بالله كشقيقته إلا أنه كان يشعر شعوراً عاماً بأن أخته لم تمت تماماً وإنما انتقلت حياتها إليه كما وعدت هي بذلك . هناك اعتقاد يسود مقاطعة « بريتانيا » بأن الذين يموتون في الشباب لا يموتون ، وإنما يظلون مخلقين حيث كانوا يعيشون حتى تنقضى المدة التي كان ينبغي أن يعيشوها . وهكذا ظلت انطوانيت تعيش وتنمو إلى جانب أوليفيه .

وأخذ أوليفيه يقرأ ما تبقى من الأوراق التي تركها أخته . فقد شاء سوء الحظ أن تكون قد أحرقت معظم ما كان لديها من أوراق . ومع ذلك فلم تكن انطوانيت من أولئك اللاتي تعودن تسجيل مشاعرهم الشخصية ، بل كانت تحمر خجلاً إذا حدث أن كشف الناس عن أفكارها . ولم يكن لديها سوى دفتر صغير للذكرات التي كان من الصعب على غيرها أن يفهم ما جاء به من رموز . أجنحة صغيرة دونت فيها — دون تفسيرها — بعض التواريخ وبعض الأحداث اليومية الصغيرة التي أدخلت عليها السرور وأثارت مشاعرها ، ولم تكن انطوانيت في حاجة إلى تدوين تلك للمشاعر تفصيلاً حتى تتيج لنفسها الفرصة لكي تعيشها مرة أخرى . وأما معظم هذه التواريخ فكان يعود إلى أحداث من حياة أوليفيه ، كانت انطوانيت قد احتفظت بكل رسائله دون أن تفقد واحدة منها . . . ولكن — وأسفاه كان أوليفيه أقل منها اهتماماً بحفظ الرسائل ، فأضاع معظم ما وصله منها .

وفيم كانت تنفعه الرسائل ، ألم يكن يعتقد بأنه سيحفظ بأخته إلى الأبد ؟ لقد كان يخيل إليه أن هذا النبع الحبيب من الخنان لا ينضب ، وظن أنه يستطيع دائماً أن يروى ظمأ شفتيه وقلبه من هذا النبع إلا أنه كان عديم التبصر فلم يحافظ على مامنحته أخته من حب ، وأصبح الآن يتمنى لو يحصل على قطرات صغيرة منه ولم تأثر عندما عثر بين صفحات من كتاب من كتب الشعر كان ملكاً لأخته ، على هذه الكلمات مكتوبة على ورقة بالية :

— أوليفيه . . يا أوليفيه الحبيب . . .

كاد أن يغمى عليه وأخذ يفتحب وهو يضبط بشفتيه على شفتى أخته اللتين لا يراها إلا في الخيال . كانتا تتحدثان إليه في العالم الآخر . ومنذ ذلك الحين وهو يبحث في كتبها لعلها أن تكون قد أودعتها سرا آخر . وعثر على مسودة رسالة منها لكريستوف وعلم حينئذ القصة الصامتة التي كانت بدأت تنمو لدى أخته . واستطاع لأول مرة أن يقتحم حياة أخته العاطفية التي كان يجهلها والتي لم يحاول من قبل معرفتها ، وتذكر الأيام القلقة التي عاشتها انطوانيت بعد أن هجرها هو ، حين كانت تمد ذراعها نحو الصديق المجهول . ولم تكن قد صرحت له أبداً بأنها سبق أن التقت بكريستوف ، إلا أنه اكتشف من بعض سطور الرسالة أنهما التقيا فعلاً منذ عهد قريب في ألمانيا ، وفهم أن كريستوف حامل انطوانيت معاملة كريمة في إحدى المناسبات التي لم يعرف أوليفيه

تفاصيلها ، ومن هنا نشأت عاطفة انطوانيت نحو كريستوف وظلت محتفظة بسر ها حتى النهاية .

وكان أوليفيه يحب كريستوف من أجل فنه لحسب ، ثم فجأة أصبح حبه له مشخصا ، حبا لا يوصف ، ألم تكن انطوانيت تحبه . لقد خيل إلى أوليفيه أنه يحبه لكريستوف إنما يحب أخته وحاول أن يتقرب منه ولكن لم يكن من السهل عليه أن يقتنى أثره ، فقد اختفى كريستوف من باريس الهائلة بعد فشله في حفلة موسيقية كان قد أقامها واعتزل الناس جميعا ولم يعد أحد يهتم به .

ومرت شهور . وشاءت الصدفة أن يلتقى أوليفيه بكريستوف في الطريق . كان كريستوف أصفر الوجه قد أهوله المرض الذى لم يشف منه إلا أخيرا ، إلا أن أوليفيه لم يجد فى نفسه الشجاعة الكافية ليستوقفه فتبعه حتى منزله . ثم فكر فى أن يكتب إليه إلا أنه لم يستطع تنفيذ ذلك ...

ماذا يكتب إليه ، وهل كان أوليفيه وحيدا ؟ كانت أخته إلى جانبه . إن حبها وطهرها كانا قد انتقلا إليه . ومجرد التفكير أن أخته أحبت كريستوف كان يجعله يحمر خجلا أمامه كما لو كان هو انطوانيت ،

ومع ذلك كم كان يود لو تحدث إليه عنها... لكنه لم يستطع... كان سرها يلجم لسانه.

كان أوليفيه يحاول أن يلتقي بكريستوف ويذهب إليه في كل مكان يمكن أن يجده فيه، وكان يشتعل رغبة في أن يمد إليه يده مضالها، ولكن ما أن يلمحه حتى يتوارى منه خشية أن يراه.

وأخيرا — ذات مساء — وكان ذلك في صالون لأحد الأصدقاء
انتبه إليه كريستوف . وكان أوليفيه يقف بعيدا دون أن يقول شيئا
إلا أنه كان يراقبه ولا شك . إن انطوانيت كانت مع أوليفيه في تلك
الليلة ، فقد رآها كريستوف في عيني أخيها ، وكانت الصورة التي
انبعثت فجأة هي التي جعلته يحترق الصالون ليتجه مباشرة نحو الرسول
المجهول الذي يحمل إليه — كأنه هرم إله الفضاء — بحجة حزينته
رفيقة من الروح التي ذهبت إلى عالم السعادة .

ملاحظة

لكل كتاب رقمان : الأول ، الرقم الأول العام ، ويدل رقم الكتاب في السلسلة وهو مكتوب على الصفحات الأولى ، وعلى كعب الكتاب ، بين اسم الكتاب واسم المؤلف :

والثاني : الرقم الخاص — ويدل على رقم الكتاب من حيث الموضوع وهو مكتوب على الغلاف عند أسفل الكعب .

صدر من كتب الأدب
من مجموعة الألف كتاب

(أدب عام ، تاريخ الأدب ، نقد ، شعر ، قصص)

-
- | | |
|-----------------------------|------------------|
| ١ - كفاح | تأليف جالسورثي |
| ٢ - كفاح الأحرار | د أفلارتي |
| ٣ - الأحمر والأسود (جزءان) | د ستاندال |
| ٤ - الحاج مراد | د تولستوي |
| ٥ - منزل الأموات | د دستوفسكي |
| ٦ - عذراء اللورين | د مكسويل أندرسون |
| ٧ - أساطير من الأمم المتحدة | د فرانسيس فروست |
| ٨ - الأدب المقارن | د م . ف . جويار |
| ٩ - القوة والمجد | د جراهام جرين |
| ١٠ - نوم سوير | د مارك توين |
| ١١ - رحلة إلى الهند | د ا . م . فورستر |
| ١٢ - أعلام الفن القصصى | د ه . ل . توماس |
| ١٣ - بين العمل والامل | د چينى لى |

- ١٤ — مكتب البريد تأليف تاغور
١٥ — الأشباح د. هنريك إبسن
١٦ — مختارات من المسرحيات القصيرة
١٧ — مختارات من القصص الإنجليزية القصيرة
١٨ — تاريخ الأدب اليوناني للدكتور محمد صقر خفاجة
١٩ — تاراس بولبا تأليف جوجول
٢٠ — روايات وقصص من العهد الفرعوني
٢١ — إيسوب تأليف أ. د. ويفتل
٢٢ — الزوجة الأولى د. بيرل بك
٢٣ — دنيا المصالح د. خستو بنفتي
٢٤ — الرجل الذي لم يوجد د. أوين مونتاجو
٢٥ — مختارات من المسرحيات د.
٢٦ — نهاية السكير د. هانتر فالادا
٢٧ — الجريمة والعقاب (جزءان) د. دستوفسكي
٢٨ — دون كخوته د. سرفانتس
٢٩ — الشعلة د.
٣٠ — رحلة العمر د. الصاغ كال مشهور
٣١ — أشهر القصص الصينية د. لين بوتانج
٣٢ — دعاء الفجر د. حسين القبانى
٣٣ — هواية الحيوانات الزجاجية

- ۳۴ — مختارات من چین دی موباسان
۳۵ — دیوان شعر علی شوقی
۳۶ — هاتز کرستیان آندرسون تألیف جودین رومر
۳۷ — قصه الجسر الغربی د محمود أحمد
۳۸ — قصه صرعی البؤس د أحمد محمد عیش
۳۹ — هکلبری من د مارک توین
۴۰ — سیاتی الوقت د رومان رولاند
۴۱ — نسیب مسیو پواریه
۴۲ — أنطوانیت د رومان رولاند

مطبوعات دار نهضة مصر في مشروع الألف كتاب

قصة الطفس — طبيعيات الجو وظواهره
الكشف والفتح

علوم

الشمس (قصتها من البداية إلى النهاية)
التقاويم — شخصية الحيوان —

الانقلاب الصناعي في إنجلترا

علوم انسانية

الحياة الناجحة — في طلب التوابل

مرشد الآباء والأمهات

دراسات في المغرب والاندلس

الجنس البشري في معرض الاحياء

الدولة

سنة من علماء الطبيعة

مختارات من القصص الانجليزية القصيرة

أدب

مسرحية الاشباح

مسرحية الشعلة

رحلة العمر

قصة أنطوانيت

الاشغال البدوية

التصوير الشمسي

فنون

العلوم في الحياة اليومية

اشغال التجارة المنزلية — تجارب كيميائية بسيطة

عمل السجاد — هواية جمع طوابع البريد

اهداف هذه المجموعة

✳ تكوين مكتبة عربية متكاملة ، يجد القارئ العربي فيها كل الدقة ، متمشية مع آخر ما وصل اليه العلم في تلك ماعو بحاجة انيه من المعلومات في شتى الموضوعات ، معروضة عرضا سهلا ، يتقبله القارئ العادي ، ويجد فيه التخصص الحقائق والنظريات والآراء مبسطة بغاية الموضوعات .

✳ نشر هذه المكتبة في اوسع نطاق ممكن ، وذلك بتخفيض السعر قدر الامكان ، واشراك اكبر عدد من الناشرين في نشرها .

✳ النهوض بالكتاب العربي من حيث الشكل والموضوع .

✳ تشجيع عادة اقتناء الكتب وقراءتها .

✳ الاستفادة بصورة عملية من جهود العلماء والادباء في شتى الأمم ، بامانة الفرصة امام القارئ العربي للاطلاع الواسع على ما عندهم .

✳ افساح المجال امام الشباب الطامع الى الاشتغال بالعلم والادب للمساهمة بصورة ايجابية في النهضة العلمية والادبية .

✳ تشجيع الناشرين في مصر والدول الشقيقة على الاقبال على نشر كتب العلم والثقافة العالمية ، وتعويضهم تعويضا مجزيا .

✳ تجديد النشاط الفكري في العالم العربي عن طريق الكتب القيمة التي تحمل اليه العلم والمعرفة .

الكتاب ١٤

نشرته مكتبة نهضة مصر بالقاهرة

0698325